بايلك الغرب الجزائري في المجلة الافريقية

د. كمال بن صحراوي





بايلك الغرب الجزائري
في المجلة الافريقية

د. كمال بن صحراوي

دار المجدد للطباعة والنشر والتوزيع
2018

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف د. كمال بن صحراوي

الكتاب بايلك الغرب الجزائري
في المجلة الافريقية

الصفحات 208 صفحة

القياس 16 X 24 سم

© المكتبة الوطنية الجزائرية 2018.
ردمك: 978-9947-38-183-0
الايداع القانوني: شهر أكتوبر 2018.

دار المجدد
للنشر والتوزيع

02 نهج حفصي الطاهر (وراء الولاية)- سطيف/الجزائر
036.82.58.09 /0550.96.31.19 / 0550.96.31.07
على الفيس بوك: دار المجدد للنشر والتوزيع

إهداء

إلى كل الذين يعملون حتى لا

ينطفئ النور في العالم الإسلامي

مقدمة:

منذ فترة امتزجت لدي رغبة في دراسة تاريخ بايلك الغرب الجزائري ودراسة ما تعلق به في المجلة الإفريقية، وكان للموضوع الأول حظ وافر من خلال إنجاز رسالة دكتوراه حول الأوضاع العامة بريف هذا البايلك، وظلت الرغبة الثانية قائمة حتى أنجزت مجموعة من المقالات نشرتها في مجلات محكمة جزائرية وأجنبية، فقررت جمعها في كتاب واحد، وقدمت لها بنبذة عن البايلك المعني وأخرى عن المجلة الإفريقية.

ونظرا لأن أصل مادة هذا الكتاب مجموعة مقالات فإن كل مقالة حملت معها ملخصها وتقديمها مع بعض التعديل الطفيف، وحملت أيضا طريقة التهميش حسب الشروط المختلفة التي تفرضها المجلات. أما الملاحق فأزلتها نظرا لعدم وضوحها باستثناء ملحق واحد يمثل صورة ليون روش.

وإني لأرجو أن يجد القارئ الكريم ضالته في مادة هذا الكتاب.

جامعة ابن خلدون – تيارت

2018/09/10

الموضوع الأول

لمحة عن بايلك الغرب والمجلة الإفريقية

بايلك الغرب:

حمل العثمانيون معهم إلى المغرب الأوسط نظاما إداريا جديدا، فقسموا البلاد إلى أربعة أقاليم كان بايلك الغرب واحدا منها. غير أن قربه من إسبانيا جعله هدفا لهجمة كبيرة في بداية ق 16م انتهت باحتلال وهران والمرسى الكبير، وأحدثت به مجموعة من التغيرات الأساسية التي مست المجتمع والدولة. حيث انساق كثير من القبائل وراء السعي للربح الذي يحققه تزويد الحاميات الإسبانية، وهو ما جعل الدولة الناشئة تعاني صعوبات جمة في إطار التجاذب الحاصل في المنطقة.

كما أن موقع بايلك الغرب بمحاذاة المغرب الأقصى جعله في الواجهة حين تعلق الأمر بمحاولات توسعية عملت السلطة العثمانية بالجزائر على استغلالها لإخضاعه، غير أن ظروف البلاد الداخلية والتحرشات الإسبانية مكنت المغاربة من الرد القوي في كثير من الأحيان، وهو ما عرّض بايلك الغرب إلى متاعب عديدة كان نصيب الريف منها وافرا للغاية.

كان لفظ البايلك يُستخدم للدلالة على نوع من الإيقاع الخاص بقدماء ضباط الإنكشارية المتقاعدين، ثم استخدم في الجزائر للدلالة على الإقطاعات التي تؤخذ منها الضرائب، ثم أصبح يستخدم للحديث عن الحكم الإداري العثماني في البلاد[1]، وبالتحديد عن المقاطعات الإدارية الكبرى بعد دار السلطان. وإن كان مفهومه أوسع حيث دل على الإدارة العامة والسلطة وكل شيء عمومي تابع للدولة في مجموع القطر الجزائري[2].

ويعود تاريخ ظهور بايلك الغرب إلى نهاية النصف الأول من ق 16م، وذلك خلال حكم حسن بن خير الدين (1540م-1552م) حين قسمت البلاد إلى 04 مقاطعات، وفي 1563م أصبحت مازونة عاصمة البايلك[3]، وتولى الحكمَ فيها الباي ابن خديجة الذي

---

[1] – ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2000، ص 241

[2] – المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني؛ العملة، الأسعار والمداخيل، ج1، الجزائر: دار القصبة للنشر، ط 1، 2009، ص 418

[3] – محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق وتقديم محمد ابن عبد الكريم، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2، 1981، ص 16

عينه حسن آغا على الناحية الغربية في هذا العام، وبذلك يعتبر بمثابة الباي الأول نظرا لعمله على إقامة تنظيم إداري بالبايلك.

ويؤكد الآغا بن عودة المزاري تشكيل الأتراك في الجزائر لبايلك الغرب بعد دار السلطان، ويذكر أنه كانت له عاصمتان؛ مازونة وتلمسان، فكان يسمى ببايلك مازونة، وفي 1686 جُمعت العاصمتان وصارت القاعدة قلعة واقعة بإقليم بني راشد وتنسب إليهم، ثم صارت معسكر ثم وهران بعد الفتح الأول لتنتقل إلى مستغانم ثم إلى معسكر ثم إلى وهران بعد الفتح الثاني.

وقد تحكمت ظروف في هذا التقلب بين المقرات المختلفة، حيث نُقلت العاصمة إلى معسكر عام 1701م حتى تتوسط المنطقة، لينقلها الباي بوشلاغم إلى وهران عام 1708م بعد نجاح حملة قادها بهدف تحريرها من الاحتلال الإسباني. وبعد عودة الإسبان من جديد إلى وهران عام 1732م انتقل الباي إلى مستغانم لتظل بها العاصمة حتى 1737م، وهي السنة التي توفي خلالها، وبعد وفاته عادت العاصمة إلى معسكر لتظل بها حتى تحرير وهران الثاني عام 1792م من قبل محمد بن عثمان الكبير الذي

اتخذها عاصمة لحكمه، وقد ظلت كذلك حتى قضى الفرنسيون على الحكم العثماني بالجزائر.

واتخذت السلطة العثمانية بهذا البايلك صبغة حربية نظرا لظروف ثلاثة: لتوتر العلاقات بينها وبين المغرب الشريفي، لاحتلال الإسبان لوهران والمرسى الكبير مدة طويلة، ولانتفاضة الطريقتين الدرقاوية والتيجانية – ومعهما كثير من القبائل – ضد السلطة المركزية.

ويعادل بايلك الغرب تقريبا القطاع الوهراني حاليا، أما حدوده فمثّلها المغرب الأقصى من الناحية الغربية، ودار السلطان وبايلك التيطري من الشرق، والبحر المتوسط من الشمال والصحراء من الجنوب. غير أن من الباحثين من أعطى حدودا أدق للبايلك حيث اتخذ نهر الشلف حدا شرقيا له والملوية حدا غربيا، لكن الزهار يرى أن الناحية الغربية كلها كانت بيد باي وهران، الذي له خليفة وقواد وآغوات، وحكمه ينتهي إلى بوحلوان وإلى عمالة باي التيطري. وإذا كانت مليانة قد مثلت الحد الشرقي لبايلك الغرب

حين كانت عاصمته مازونة فإنها ضُمت إلى دار السلطان في ق 18م لتعود إليه مرة أخرى في أوائل ق 19م.

المجلة الإفريقية:

أما المجلة الإفريقية فيعود منشَؤُها إلى الجمعية التاريخية الجزائرية التي ظهرت في السابع من شهر أفريل 1856 – بمدينة الجزائر بوحي من الحاكم العام Randon – وتكفلت بإصدارها فظهرت في 106 أعداد على مدى أزيد من قرن (حتى 1962)، وقد ترأسها بربروجر في البداية، وكان له دور كبير في تأسيسها وتحديد بعدها السياسي الذي اختلط بالبحث التاريخي حينا وطغى عليه أحيانا أخرى.

كان بربروجر واحدا من الشخصيات المؤثرة في مسيرة هذه المجلة، فقد صار كاتبا خاصا للجنرال كلوزال وصحب الجيش الفرنسي وهو يتحرك للسيطرة على معسكر ووهران وقسنطينة، وكان هدفه جمع المخطوطات الضرورية ليكوّن منها لاحقا ما يسمى بالمكتبة الوطنية التي اتخذت مقرا لها – مع المتحف

الوطني – بدار الحاج عمر صهر الداي حسن. وحين أنشأ المجلة عام 1856 بذل جهدا كبيرا جدا في تزويدها بالمقالات تشجيعا لها وإثراء لمحتوياتها، حيث نشر بها أكثر من 100 مقال.

وكان خطه السياسي خطيرا للغاية باعتباره واحدا من الدعاة الأوائل إلى توسيع احتلال الجزائر، فقد وقف ضد مشروع الأمير عبد القادر وحرض عليه ونبه إلى مستقبل الفرنسيين بالجزائر إذا هم غفلوا عن مقاومته ولم يقضوا عليها. بل نشر كتابا – مرتين خلال عام واحد بين 1838 و1839 – عن رحلته الشهيرة إلى معسكر الأمير بالبويرة؛ الأولى ضمن مجلة العالمين في حدود 53 صفحة (Revue des deux Mondes, 15, 1838) والثانية ضمن كتاب خاص نشره بباريس.

وقد تكفل الأستاذ المرحوم أبو القاسم سعد الله بترجمة هذا الكتاب والتعليق عليه دون ترجمة ملاحقه، ونبه إلى خطورته السياسية التي تمثلت في "كتابة تقرير عن وضع السكان الاقتصادي والسياسي والعسكري وعن طبيعة المنطقة في الحرب والسلم، وعن خطط الأمير نحو الشعب ونحو الفرنسيين حاضرا

ومستقبلا"[4] ونبّه إلى ضرورة قراءة الرحلة بإمعان خاص يوجبه الظرف الذي كتبت فيه.

وبمناسبة الذكرى المئوية لصدور المجلة الإفريقية حمل العدد 100 لسنة 1956 – وابتداء من الصفحة 05 – مقدمة عنوانها Célébration du Centenaire حوت مداخلة شخصيات عديدة منها Georges Marçais رئيس الجمعية التاريخية الجزائرية حول هذه المجلة وإنجازاتها. وفيها في الصفحة 191 مقال لنائب رئيس الجمعية التاريخية Gabriel Esquer حول التطورات التي عرفتها المجلة والمشاكل التي عانت منها، وفي ختام المقال قائمة بمسؤوليها وأعضائها.

لقد نوه الباحثون الفرنسيون بهذه المناسبة بالتقدم الذي أحرزته الكتابة التاريخية في الجزائر خلال العهد الاستعماري خاصة منذ 1930 فقد كتب ياكونو Yacono مقالا هاما عنوانه «L'Algérie depuis 1830» تحدث فيه عن الكتابات التي ألفت عن الجزائر

[4]– أدريان بربروجر، مع الأمير عبد القادر، رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة 1837-1838، ترجمة وتعليق أبي القاسم سعد الله، 2005، ص 09

المستعمرة، وكتب إسكير Esquer مقالا آخر هاما أيضا عنوانه:« La Société Historique Algérienne 1856-1956» تطرق فيه إلى إنجازات هذه الجمعية. وكان مسيّر المجلة الإفريقية المهندس Jean Bevia قد ألقى سابقا في ديسمبر 1918 كلمة عن المجلة وأهدافها الكبرى ملخصا إياها فيما يلي: « l'étude de tous les faits appartenant à l'histoire de l'Afrique et surtout de ceux intéressant l'Algérie, depuis l'époque libyque jusques et y compris la période turque ».

وإذا كانت المجلة قد حوت في أعدادها مواضيع متعلقة بشمال إفريقيا عموما فإنها ركزت على تاريخ الجزائر، ولا يمكن أن ينكر عاقل ما قدمته هذه الجمعية التاريخية ومجلتها "للمستعمرة" من خلال البحث في المجالات المختلفة خصوصا الاجتماعية، لكن أقلامها وضعت هدفا كبيرا صوب أعينها ممثلا في كتابة هذا التاريخ من وجهة نظر فرنسية لتوهم أهل البلاد أن تاريخهم إنما بدأ فعلا مع قدوم الجيوش الفرنسية الحاملة لآليات الحضارة،

ولترسخ في عقولهم فكرة الاحتلال المتكرر للجزائر والذي يعطي الحق لآخر محتل حل بها.

كما سعت هذه الكتابات إلى أن تقدم للإدارة الاستعمارية وسائل السيطرة على البلاد من خلال تزويدها بالمعلومات الضرورية عن السكان وطبائعهم ولهجاتهم ومناطق السكنى وطبيعة الأراضي وملكياتها. وتوفير معطيات غنية عن الثورات الشعبية ورجالاتها، والمدارس وعلمائها والتاريخ المحلي وخصوصياته، والاهتمام بالتاريخ الروماني وتقديسه لتصنع منه أنموذجا حيا يتعلق به القادمون الجدد الذين لفظتهم القارة الأوربية بسبب تفاعلات الثورة الصناعية والتحولات السياسية العميقة التي خلّفتها.

وكان حظ الجزائر العثمانية من مواضيع المجلة الإفريقية واسعا حيث خُصص بعضها للشخصيات العثمانية الفاعلة وعلى رأسها بربروس، وبعضها الآخر للمدن الرئيسية، كما دُرس التنظيم الإداري والكتابات المحلية والمؤسسات الدينية والثورات والقبائل والوجود الإسباني وسكان الريف والمؤسسات التجارية الفرنسية

ودور اليهود في المجتمع الجزائري وعشرات المواضيع التي لا تقل أهمية عن التي ذكرناها.

ونظرا لأهمية هذه الدراسات ارتأيت تتبع المواضيع التي عالجت تاريخ بايلك الغرب الجزائري، حيث أجريت إحصاء عاما لها واعتنيت بمضامينها العامة. حتى إذا أمعنا النظر فيها وجدنا على رأسها العلاقة بين الجزائر وإسبانيا من خلال تجاذبات كثيرة أهمها ما وقع بوهران التي استقطبت اهتمام كتاب المجلة الإفريقية، حيث كتب كل من ساندوفال ودون أونطونيو حول الاحتلال الثاني في 1732 بينما اهتم بربروجر بشخصية أوزن حسن ودوره في تحرير المدينة عام 1708 وبالمفاوضات التي جرت سابقا بين حسن آغا والكونت دالكوديت، وهي دراسات تتعزز بما كتبه قين حول الحملات الإسبانية خلال الاحتلال الأول، وجاكتون حول حملة مارتيناز لإخضاع تلمسان عام 1535، وكازناف حول حكام وهران في العهد الإسباني ومناطق السيادة الإسبانية بإفريقيا. وتتعزز أيضا بما كتبه فيرو عن المفاوضات بين بربروس

والإسبان، وبروديل عن هؤلاء في إفريقيا الشمالية، وليسبيناس عن وضعية مدينة وهران وميناًئها.

كما كان للشخصيات الفاعلة نصيب من مواضيع المجلة الإفريقية، فقد كتب قورقوس موضوعا عن الباي محمد الكبير وآخر عن حملته التي قادها ضد عين ماضي، وكتب برينيي عن حملته ضد الشلالة، واهتم بربروجر بعروج ومكان وفاته، وهو نفس الموضوع الذي عالجه دوغرامون لكن من وجهة نظر مختلفة. وتطرق أرنو إلى حياة التيجاني واهتم بودان بسيدي أحمد ابن يوسف، وتوقف ليسبيناس عند مسألة محاولة تنصير الأمير عبد القادر الذي تحدث عنه دلباش في موضوع آخر من خلال كتاب ابن عمه الحسين ابن أبي طالب.

وقد وردت مقالات عن القبائل في الغرب الجزائري والمدن الرئيسية فيه، فهذا مونجان يكتب عن تاريخ الأغواط، وذاك بوسكي ينشر "رحلات سوسيولوجية" عن مدرسة مازونة العتيقة وعين الحوت بتلمسان وما يحيط بها من معتقدات. وهذا رين يكتب عن

القبائل التي سكنت الجهة الغربية ضمن مؤلّفه "مملكة الجزائر تحت حكم الداي الأخير".

غير أن إنتاج المجلة الإفريقية الغزير لم يمس حركة التأليف ببايلك الغرب إلا قليلا، حيث كتب قورقوس حول أبي راس الناصري وكتب أرنو حول كتابه "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" واهتم دلباش "بالبستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان"، وبودان "ببهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين من الأعراب كبني عامر" وحرر قين مقالا عن تغييب كتاب أبي راس الناصري حول الأنساب والذي سماه "أنوار البرجيس في شرح العقد النفيس" وجعله شرحا لكتاب أبي زيد "عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس" الذي اهتم به قين أيضا لكن في موضع آخر. وكان للكتابات الجدارية نصيبها سواء بمعسكر أو وهران أو تلمسان. أما كتابات الأسرى فمثلتها مذكرات تيدينا من خلال مقال إيميريت الرائع الذي أماط اللثام عن أبعادها السياسية الخطيرة.

ولا يمكن أن نغفل عن الأخطاء الواردة في هذه النصوص والتفسيرات المغرضة التي نجدها بين الحين والآخر، ولذلك نبهنا إليها في مواضعها، وحذرنا من التطرف الذي طال بعضها، وهذا ليس بجديد على المدرسة الاستعمارية التي حاولت إيجاد منظور جديد تتم من خلاله دراسة تاريخ الجزائر.

هذا وإنني إذ أضع هذا العمل بين أيدي القراء الكرام أتمنى أن أكون قد ساهمت في بناء صرح الكتابة التاريخية بالجزائر ولو قليلا، راجيا أن تحظى المجلة الإفريقية مستقبلا بمزيد من العناية والبحث للاستفادة من المادة التي تحويها والتنبيه إلى كل ما قد يقف الباحثون على خطورته في ثناياها.

الموضوع الثاني

أضواء حول بعض المؤلفات ببايلك الغرب الجزائري

ملخص:

سنحاول من خلال هذا المقال الولوج إلى عالم "المجلة الإفريقية" الغني بالدراسات لنتعرف على اهتمام كُتابها بحركة التأليف ببايلك الغرب الجزائري، مع بيان طبيعة تعاملهم مع النصوص ومؤلفيها والأحداث المتعلقة بها والمنهج الذي اتبعوه في هذه الدراسات، ومع الإشارة أيضا إلى مواطن الانحراف في الأحكام الصادرة عن هؤلاء الفرنسيين خصوصا وقد تم تغييب كثير من هذه المؤلفات المعالجة بعد استنفاذها وقضاء الحاجة منها.

ونشير ابتداءً إلى أهمية هذه الدراسات الفرنسية – بغض النظر عن الأهداف الخطيرة التي تبنتها – فقد تتبعتْ ما كُتب عن احتلال وهران وتحريرها والشخصيات التي تكفلت بذلك على المستويين الإسباني والجزائري، وآثار الاحتلال على البيئة الجزائرية عموما والريفية على الخصوص، ودور الحكام في إخضاع القبائل للسلطة العثمانية، إضافة إلى التفاعل مع قضايا اجتماعية لكن ببعد فكري كمسألة ادعاء الشرف وما ترتب عنها من مواقف من العلماء ومن صدام مع القبائل.

وجدير بالذكر أن هذه الدراسات الواردة في المجلة الإفريقية لم تهمل التأليف الأجنبي الذي كان ببايلك الغرب كمذكرات تيدينا التي حوت تجربة مؤلفها ضمن قصر الباي محمد الكبير ونقلت صورة عميقة من هذا الصرح عن الحياة العامة بالبايلك وعن اهتمام الحاكم بالأسير الفرنسي وتقديمه له عن غيره، ثم إن الدراسة لم تتوقف عند هذا الحد بل راحت تتبع حياة هذا الأسير بعد عودته إلى بلاده لتصل إلى فضح الأدوار الخطيرة التي قام بها بعد ذلك كأنموذج عن الأجنبي الطموح الذي يندرج ضمن مخطط استعماري واسع وخطير.

تقديم:

اكتست المجلة الإفريقية أهمية خاصة واستقطبت اهتمامات الباحثين نظرا للمواضيع التي احتوت عليها، فقد كتب الفرنسيون – في أعدادها التي فاقت المائة وعلى مدار أكثر من قرن – في آلاف المواضيع السياسية والتاريخية والاجتماعية والثقافية، وإذا كانت قد حوت في أعدادها مواضيع متعلقة بشمال إفريقيا عموما فإنها ركزت على تاريخ الجزائر. ولا يمكن أن ينكر عاقل ما قدمته "الجمعية التاريخية" ومجلتها "للجزائر المستعمرة" من خلال البحث في المجالات المختلفة خصوصا الاجتماعية، لكن أقلامها وضعت هدفا كبيرا صوب أعينها ممثلا في كتابة هذا التاريخ من وجهة نظر فرنسية لتوهم أهل البلاد أن تاريخهم إنما بدأ فعلا مع قدوم الجيوش الفرنسية الحاملة لآليات الحضارة، ولترسخ في عقولهم فكرة الاحتلال المتكرر للجزائر والذي يعطي الحق لآخر محتل حل بها.

كما سعت هذه الكتابات إلى أن تقدم للإدارة الاستعمارية وسائل السيطرة على البلاد من خلال تزويدها بالمعلومات الضرورية عن السكان وطبائعهم ولهجاتهم ومناطق السكنى وطبيعة الأراضي وملكياتها. ووفرت معطياتٍ غنية عن الثورات الشعبية ورجالاتها،

والمدارس وعلمائها والتاريخ المحلي وخصوصياته، واهتمت بالتاريخ الروماني وقدسته لتصنع منه أنموذجا حيا يتعلق به القادمون الجدد الذين لفظتهم القارة الأوربية بسبب تفاعلات الثورة الصناعية والتحولات السياسية العميقة التي خلّفتها.

واستحوذ الفرنسيون على المخطوطات التي وقعت عليها أيديهم بالجزائر، وكان بربروجر واحدا من الشخصيات المؤثرة في هذا المجال، فقد أصبح كاتبا خاصا للجنرال كلوزال وصحب الجيش الفرنسي وهو يتحرك للسيطرة على معسكر ووهران وقسنطينة، وكان هدفه جمع المخطوطات الضرورية ليكوّن منها لاحقا ما يسمى بالمكتبة الوطنية التي اتخذت مقرا لها – مع المتحف الوطني – بدار الحاج عمر صهر الداي حسن. وحين أنشأ المجلة عام 1856 بذل جهدا كبيرا جدا في تزويدها بالمقالات تشجيعا لها وإثراء لمحتوياتها، حيث نشر بها أكثر من 100 مقال.

وكان حظ بايلك الغرب الجزائري من كتابات المجلة الإفريقية وافرا خصوصا ما تعلق بالوجود الإسباني حيث اهتم الباحثون بمدينة وهران والمرسى الكبير والشخصيات الإسبانية التي كان لها دور في تنشيط الفعل الاستعماري، ودور القبائل المحلية في التمكين للإسبان، ومحاولات التحرير المتكررة سواء الفاشلة أو تلك

التي تمكنت من تحقيق الهدف عامي 1708 و1792. غير أننا سنقتصر في هذا المقال على ما حوته المجلة الإفريقية من معالجة لمؤلفات كتبت ببايلك الغرب الجزائري وتركت أثرا بالغا في حركية الكتابة التاريخية. وكان هدفنا تعريف القارئ بهذه المؤلفات من جهة وبالجهد الفرنسي في دراستها من جهة أخرى.

1- أبو راس الناصري؛ مؤرخ جديد بإفريقيا الشمالية[1]:

يبدأ الباحث Gorguos مقاله هذا بالحديث عن القصيدة التي ألفها أبو راس الناصر في الباي محمد الكبير الذي بذل جهدا كبيرا لاستعادة وهران من الإسبان، ويذمها منذ البداية – وهي من بحر "الكامل"– لأنها لم تتقيد لا بالوزن ولا بالقافية، لكنها أعجبته من حيث المعلومات التي جاءت بها حول العرب والبربر والأتراك في إفريقيا الشمالية منبها إلى أنها حوت معلومات غفل عنها ابن خلدون أو حدثت وقائعها بعده، ولعل هذا هو ما جعله يشيد بصاحبها مقرا أنه كان كثير القراءة قليل المشاهدة، ومُنوِّهًا بالمعلومات "الجديدة" التي تضمنتها القصيدة قائلا:

"**لقد فكرت في أن أستخلص من هذه القصيدة كل ما يتعلق بتاريخ الشعوب الإفريقية التي تعيش اليوم تحت سيطرتنا، لأضعه بين يدي قراء المجلة**".

لم يكن أبو راس الناصر حاضرا زمن حصار الباي الكبير لوهران بهدف تحريرها (1791) ورغم ذلك فإن الأخبار وصلته وهو في تونس، ولقد لاحظ انتشارها في مدن تونسية كثيرة كسوسة وصفاقص والمنستير وجربة، وهو ما شجعه على كتابة قصيدته السينية "**نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران**"، غير أن بساطة أسلوبها جعلته يحولها إلى تأليف يحمل العنوان التالي "**عجائب الأسفار ولطائف الأخبار**". وقد ضمّنه أبو راس أخبارا هامة تتعلق بالحصار والتحرير والعلماء المشاركين فيه والقبائل المتعاونة مع الإسبان، إضافة إلى مواضيع أخرى متشعبة بعيدة عن موضوع الفتح.

فالجدير بالذكر إذاً أن Gorguos لم يترجم القصيدة وإنما درسها واستخرج منها ما رآه جديرا بالحديث. وقد أشار إلى تسمية أبي راس بهذا الاسم وذهب إلى احتمال كبر هذا الجزء من جسمه. وعمد إلى تصحيح الأخطاء التي حملتها أبيات القصيدة، ومن ذلك مثلا:

وتحت اليهود غداة غريبة ** يعاليها والخنزير فوق المزابر

فقال: "**البيت خاطئ ولا يعطي أي معنى، وقد توقعت أنه وجب القول**":

وتحت اليهود غادة عربية ** يلاعبها الخنزير فوق المزابر

كما لجأ Gorguos – بخصوص بعض الأسماء الواردة في القصيدة – إلى مقارنتها بتاريخ ابن خلدون الذي سلمه إليه De Slane كما ذكر. وتوقف عند بعض الشخصيات فعرّفها تعريفات مقتضبة كأبي زيد عبد الرحمن الثعالبي الذي ذكر تاريخ وفاته بمدينة الجزائر (875 هـ) وأن ضريحه كان محل تقديس من قبل حكام المدينة. ومن باب التأكد لجأ إلى مقارنة ما جاء به أبو راس مع شجرة نسب الثعالبي الموجودة بزاويته ونقل إلينا جميع الاختلافات.

رداءةُ القصيدة –كما جاء عن كثير من الباحثين– لم تمنع Gorguos من الاهتمام بها ودراستها فأخرج منها موضوعا موزعا على 03 مواضع لكن في نفس العدد وهو ما يسهل على القارئ متابعته.

2- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار[2]:

هذه ترجمة لمخطوط أبي راس الناصري "عجائب الأسفار ولطائف الأخبار" قدمها المترجم العسكري أرنو موزعة على الأجزاء المذكورة أدناه.

وأصل الكتاب قصيدة أبي راس السينية "نفيسة الجمان في فتح ثغر وهران"، التي ضمنها حديثه عن فتح وهران ومدح فيها الباي محمد الكبير الذي بلغته أخبار فتحه وهو في تونس. وقد أشرنا سابقا إلى أن بساطة أسلوب القصيدة جعلته يحولها إلى تأليف يحمل العنوان المذكور والذي ضمّنه أخبارا هامة تتعلق بالحصار والتحرير والعلماء المشاركين فيه والقبائل المتعاونة مع الإسبان، إضافة إلى مواضيع أخرى متشعبة بعيدة عن موضوع الفتح.

والملاحظ انتصار أبي راس للبايلك في كتاباته التي لم تخل من مدح البايات وسياساتهم، ومن ذم المعارضين لهم خصوصا درقاوة التي ألف فيها كتابا مازال في حكم المفقود عنونه بـ "درء الشقاوة في حرب درقاوة". وهو موقف لم يتفرد به أبو راس حيث كان ابن هطال مثلا قد ساند البايلك ضد معارضيه، وأشاد بما قام به "سيده" الباي محمد الكبير "قامع المبغضين ومدوخ المارقين" بل

قدم حياته ثمنا لهذا الولاء حيث لقي حتفه في معركة فرطاسة وهو يساند الباي المنزالي ضد ابن الشريف الدرقاوي.

ملاحظة: تم تحقيق كتاب عجائب الأسفار في جزأين من قبل الأستاذ محمد غانم، كما حققه في جزأين أيضا الأستاذ محمد بوركبة ضمن رسالة دكتوراه بجامعة وهران.

3- إتلاف مخطوط أنوار البرجيس لأبي راس الناصري[3]:

هذا موضوع خطير جدا فيه اتهام واضح لأولاد سيدي دحو بإتلاف كتاب أبي راس الناصر المتعلق بأنساب سكان جهة غريس والشرف المدّعى من قبل كثير منهم. ولم يخلُ ذكر غيرهم كالمشارف وأولاد سيدي قادة من الاتهام بالتواطؤ لأن الأمر كان يمس قاعدة الشرف هذه والتي هدمها المؤلف ببيان الأنساب الصحيحة لبعض القبائل المشهورة ببايلك الغرب.

كان الشيخ أبو زيد بن عبد الرحمن التيجيني قد كتب "العقد النفيس في أعيان أهل غريس" في القرن الحادي عشر الهجري (يقابل الفترة ما بين 1591 و1688 من التاريخ الميلادي)، وخصصه لترجمة بعض علماء هذا القرن أمثال سي دحو ابن

زرفة، سي محمد بن يحيى، سي علي الشريف، سي عبد القادر بن مختار وغيرهم.

ورغم أهمية الكتاب في نظر الناس في البداية فإن البعض قد وقف على كثير من نقائصه ولذلك طُلب من الجوزي بن محمد استدراكها، وهو ما قام به[4] متتبعا حياة كل عالم حتى وفاته ومقدما شجرة النسب التي توصل إليها. غير أنه لم يتحقق من مسألة النسب التي صار ادعاؤها شائعا للغاية في هذه المرحلة وبالذات في جهة غريس، وهذا ما جعل الشيخ أبا راس الناصر يتدخل واصفا عمل الشيخ أبي زيد التيجيني بالناقص ومسجلا عليه بعض الملاحظات. ولم يقف تدخله عند هذا الحد وإنما قام بتأليف كتاب لم يخلُ عنوانه من معنى الترفع؛ "أنوار البرجيس في شرح العقد النفيس" والبرجيس هو الكوكب المعروف بالمشتري (Jupiter)، وقد ذكره أبو القاسم سعد الله بالعنوان التالي: "إيضاح الغميس وأنوار البرجيس بشرح عقد الجمان النفيس"[5].

كان كتاب أبي راس إذًا شرحا لكتاب أبي زيد، وهو ما أخاف العائلات التي ادعت الشرف فعملت على عرقلة أبي راس حتى لا يُتم كتابه خاصة وقد علمت – من بعض المقربين منه – أنه مصمم على بيان أنساب العائلات التي تنتمي إلى بني توجين

بمعنى العائلات البربرية الزناتية، لكن المساس بأبي راس لم يكن سهلا ولا عرقلته فهو يحظى بالقرب من الباي ومن الموظفين الكبار، وكتاباتُه محل تقدير من الجميع فإذا أقدم أحد على المساس بها كان مصيره العقاب الشديد.

ولذلك كان على هؤلاء الانتظار حتى وفاة أبي راس عام 1823م ليتخلصوا من هذا التأليف الذي أزعجهم، فقرر بعض العائلات – التي أرادت أن تحظى بمكانة رفيعة في مجال النسب العربي كالمشارف، أولاد سيدي قادة وأولاد سيدي دحو الذين منهم سي السنوسي بن عبد القادر وسيدي الحاج بن مصطفى – اتخاذ خطوة نتائجها مضمونة. وكانت عن طريق مفتي معسكر سي محمد بن أبي راس الناصر الذي كان غير قادر على رد طلب أولاد سيدي دحو حيث طلبوا منه إعارتهم كتاب والده لأيام للاطلاع عليه، فأعارهم إياه طالبا منهم العناية به.

ومرت الأيام ومحمد بن أبي راس يطالب أولاد سيدي دحو بإعادة الكتاب غير أنهم ظلوا يماطلون حتى جاءه خبر مفاده أنهم أتلفوا كتابا جديدا فعلم أن الأمر يتعلق بمؤلف والده فشكاهم إلى الباي حسن الذي استقدمهم فحلفوا بالله أن الأمر محض افتراء. لكن الباي لم يصدقهم وأمر بسجنهم. وبعد بضعة أشهر خافوا

على أنفسهم فطلبوا مساعدة أحد المسؤولين الكبار وكان مقربا من الباي فأقنعه بإطلاق سراحهم مقابل مبلغ من المال.

كانت 4000 ريال كافية ليخرج أولاد سيدي دحو من السجن، وقررت قبائل غريس جمع المبلغ فركب 40 فارسا وتوجهوا إلى الدواوير، وحصل أن وصلوا إلى بيت سيدي علي بن يوسف بن عبد القادر الذي رفض إعطاءهم مالا فألحوا – مهددين بالبقاء عنده حتى يدفع المال وعليه إطعامهم وتوفير العلف لأحصنتهم – فدخل خيمته وعاد إليهم ببعض المال، وقبل أن يرحلوا قال لهم: "إن الحافظ أبا راس كان له الحق (1000 مرة) حين اعتبر – في كتابه الذي أتلفه أصحابكم – سكانَ هذه الجهة من غير الأشراف".

4- عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس[6]:

هذا المقال له علاقة بسابقه، حيث لجأ صاحبه –GUIN– إلى التعريف بكتاب الشيخ أبي زيد بن عبد الرحمن التيجيني المعنون بـ "عقد الجمان النفيس في ذكر الأعيان من أشراف غريس" الذي ترجم فيه لمجموعة من العلماء والأشراف الذين سكنوا جهة غريس من أرض معسكر خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، وتحدث فيه أيضا عن أصول قبائل هذه الجهة.

مشيرا إلى أن هذا المؤلف كان تلميذا لابن زرفة الدحاوي وقد خصص له ترجمة ضمن الكتاب. كما اعتمد GUIN فقرة تحوي ترجمة للمؤلف كتبها محمد الجوزي بن محمد الراشدي المزيلي في شرحه لعقد الجمان النفيس المعنون بـ **(فتح الرحمن في شرح عقد الجمان)**

وجدير بالتذكير أن المؤلف أبا زيد لم ينتبه إلى الأنساب الحقيقية فوقع في الخطأ وهو ما دعا أبا راس الناصر إلى تأليف شرح لهذا المؤلَّف عنوانه: "أنوار البرجيس في شرح العقد النفيس" والبرجيس هو الكوكب المعروف بالمشتري (Jupiter) كما ذكرنا في الموضوع السابق.

والكتابة في الأنساب والشرف صعبة جدا وذات أبعاد اجتماعية خطيرة، فقد كان لهذا التأليف وشرحه نتائج وخيمة حيث لجأ بعض سكان غريس إلى تغييب كتاب أبي راس عمدا حتى لا يؤثر على ادعائهم النسب الشريف. (لمزيد من المعطيات يراجع الموضوع السابق)

ويشير GUIN إلى أن صاحب عقد الجمان النفيس قسم الشرف إلى الأقسام التالية:

1- الشرف الخاص ويناله المنحدرون من علي وفاطمة الزهراء والذين ينحدرون من آباء "شرفاء" وأمهات "شريفات" وذكر هنا ما يعرف "بالمحضي" وهو الذي ينحدر من أب شريف تزوج ابنة عمه أي من زوجين يشتركان في جد شريف واحد

2- الشرف العثماني: الذي يعود إلى عثمان بن عفان ورقية بنت رسول الله.

3- الشرف العام: ويشترك فيه القرشيون

كما يعرج الكاتب GUIN على معنى غريس أي المنطقة التي يتناولها التيجيني بالدراسة والقبائل التي تسكنها خاصة الحشم الذين ينعتهم بالظلم وعدم الخضوع لأي سلطة، ثم يتتبع ما أورد المؤلف في الكتاب ابتداء من الصفحة 247.

5- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان[7]:

يبدأ دلباش تلخيصه لكتاب ابن مريم "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" الذي أنهاه صاحبه عام 1014هـ (1605م – 1606م) بذكر من سلّمه هذا المؤلَّف وهو سي براهيم بن الزروقي باش عدل بمدينته الأصلية تلمسان، والتي ينحدر فيها من عائلة عريقة. ثم يعرّج على ذكر الشيخ محمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن مريم المولود بتلمسان، والذي ترجم لحياة العديد من

صلحائها وعلمائها سواء الذين ولدوا بها أو الذين التحقوا بها قادمين إليها من جهات أخرى.

وقبل البدء في عرض الملخص أبدى دلباش الملاحظات التالية:

1- يترجم ابن مريم لأناس عُرفوا بالعلم والتقوى ونالوا اعتراف معاصريهم.

2- لم تعتنِ ابن مريم بكل جوانب حياة المترجم لهم.

3- أهمل ابن مريم التواريخ رغم أهميتها في تاريخ البلاد، وهذا ما حاول دلباش استدراكه قدر المستطاع.

4- لم يلخص دلباش كل ما ورد في البستان معللا ذلك بأن ابن مريم تعرض إلى قضايا غير هامة.

5- احترم دلباش الترتيب الأبجدي الذي أورده المؤلف في "البستان".

6- بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين كبني عامر[8]:

هذه ترجمة لكتاب "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين من الأعراب كبني عامر" يعرضها علينا BODIN. ويقدم لهذا العمل بالحديث عن الفرق بين جهود الإسبان في وهران ومثيلاتها بالمغرب الأقصى في مليلية مثلا حيث كانت نشطة في

الأولى دون الثانية مقدما مبرراتٍ لذلك من بينها أن المدينة المغربية محاطة بجبال تسكنها قبائل قوية ولم يكن من الحكمة أن تقوم الحاميات الإسبانية بإزعاجها خوفا من رد فعلها.

ولم تكن إسبانيا لتفكر أبدا في توسيع نقاط سيطرتها في شمال المغرب، بل فكر مسؤولوها – على عكس هذا تماما – في إخلاء مناطق نفوذها هذه مرتين في 1764 وفي 1772 بناء على ما أسماه الكاتب "قيمة السكان السياسية"، ذلك أنهم رأوا في الشعب المغربي شعبا حقودا غير قابل للآخر؛ أي الأجنبي الكافر، خصوصا وأن هذا الشعب ذو حضارة ضاربة في القدم وله ثقافة مختلفة تماما عن ثقافة الإسبان.

ومن بين الحجج التي يسوقها الكاتب بخصوص مليلية دائما قضية العلاقات الحسنة التي عمل الملك الإسباني كارلوس الثالث (1759–1788) والسلطان المغربي سيدي محمد بن عبد الله (1757–1790) على المحافظة عليها باعتبار وجود عدو مشترك هو إنجلترا، ولذلك طالت فترة السلم – باستثناء محاولة المغرب الهجوم على مليلية عام 1775 – مثلما طالت فترة حكم هذين الملكين.

وعلى عكس هذا تماما كان إسبان وهران يسيطرون على سهلي مليتة وسيرات، وهو ما جعل القبائل تهادن المدينة لتستفيد من المراعي الهامة الموجودة بالسهلين، وكانت هذه المهادنة محفزا لعبد القادر المشرفي ليؤلف فيهم كتابه المذكور سابقا، وهو يوفر للقارئ – حسب الباحث – فرصة التعرف على هذه القبائل بأسمائها. غير أن صاحب المقال شكك في بعض هذه الأسماء بناء على ما أورده Gorguos بالمجلة الإفريقية (Vol 5, p119) اعتمادا على Clariana.

ولا يقدم الباحث ترجمة وافية للمشرفي وإنما يكتفي – اعتمادا على تلميذه أبي راس الناصر – بذكر حضوره حادثة استعادة مدينة وهران من قبل الإسبان عام 1732 مضيفا أن تأليف الكتاب كان سنة 1764. وابتداء من الصفحة 197 ينشر BODIN كتاب المشرفي حتى الصفحة 220 ليبدأ بعدها عملية الترجمة والتي تستمر حتى الصفحة 261 مع إدراج بعض التعليق والتوضيح في الهوامش.

7- حملة الباي محمد بن عثمان الكبير على الشلالة[9]:

هذا مؤلَّف حول حملة الباي محمد بن عثمان الكبير على الشلالة الظهرانية أي الشمالية، لمحمد بن بلقاسم الزاوي. وهو شبيه بمؤَلَف ابن هطال التلمساني "رحلة الباي محمد بن عثمان الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري". وكتاب الزاوي هذا مفقود غير أن برنيي حصل عليه في ق 19وترجمه، لكن هل ترجمه حرفيا أم اكتفى بتسجيل بعض التقاييد بناء على ما ورد فيه؟؟ ثم هل كان العنوان من وضع المؤلّف اقتداء بابن هطال أم إن المترجم هو صاحب المبادرة؟ وقد أشار في آخر مقاله إلى أن الزاوي كتبه في ربيع الأول عام 1255 هـ / ماي 1839م

وفي آخر المقال أيضا إشارة هامة من الناشر حول عمل الجنرال Deligny والمترجم العسكري Theuma المنشور في Le Moniteur Algérien في الأعداد 803-807-808-809 بتاريخ 03- 10-15-20 فيفري 1857 والمسمى « Relation de l'expédition du Bey Mohamed El Kebir sur Chellela » الذي تضمّن – بعد بيان أوضاع البايلك عام 1786 وتوضيح أسباب الحملة على الشلالة – نقلا

للكتاب إلى اللغة الفرنسية. ثم يوضح بأن ما نشراه ليس هو الذي تحدث عنه Bresnier وإنما كل من العملين يكمّل الآخر.

8- الثغر الجماني لابن سحنون الراشدي ورحلة الباي الكبير لابن هطال التلمساني[10]:

انطلق قورقوس من مكانة الباي محمد الكبير لدى الناس ببايلك الغرب وفي إيالة الجزائر، واعتبر ذلك هو المحفز على البحث في حقيقة هذا الباي والنعوت التي لصقت به؛ هل كان يستحقها فعلا أم أنها أُضْفِيَتْ عليه بغير حق.

وقد قاده هذا البحث إلى الحديث عن وهران التي صارت عاصمة البايلك بعد تحريرها الثاني من الاحتلال الإسباني عام 1791م. وزعم قورقوس أنه توصل إلى معرفة قضايا مجهولة في تاريخ هذه الجهة "التي صارت من ممتلكاتنا" على حد تعبيره، والشخصيات التي عاشت فيها.

وقد قسم الباحث مقاله إلى قسمين أساسيين:

أ- الحديث عن حياة الباي محمد بن عثمان ثم الاستطراد حول مدينة وهران وحملات التحرير الفاشلة التي طالتها خلال السيطرة الإسبانية، وهذا كله انطلاقا مما جاء في "**الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**" لابن سحنون الراشدي والذي احتوى الكثير من المبالغة وهو يسرد التفاصيل عن الباي الكبير. أما ترجمة

عنوان هذا الكتاب إلى الفرنسية فقد بدت لقورقوس صعبة جدا، حتى قال إن هذه الكلمات غير قابلة للترجمة. ورغم ذلك صاغها في العنوان التالي: **Les dents de perle imitant de la conquête d'Oran**

ب- ترجمة حرفية تقريبا لما ورد في مؤَلّف كاتب الباي ابن هطال التلمساني "**رحلة الباي محمد بن عثمان الكبير إلى الجنوب الصحراوي الجزائري**" الذي تحدث فيه عن هجوم هذا الباي على سكان البايلك من جبل راشد إلى الأغواط وعين ماضي.

وجدير بالملاحظة أن كاتب المقال جعل هجوم الباي على الأغواط وعين ماضي عام 1199 هـ وقابله بعام 1781م وهي مقابلة خاطئة إذ أن هذه السنة الهجرية يقابلها من التاريخ الميلادي عام 1785.

وفي إطار الحديث عن هذه الحملة تحدث الكاتب عن القبائل التي مر بها الباي وأجبرها على الخضوع ومنها قبائل الأحرار الذين كانوا دوما رافضين دفع الضريبة وكذا حميان وقبائل العمور. كما أشار قورقوس – في معرض الحديث عن كرم الباي الكبير – إلى علاقات البايلك مع باي تونس وسلطان المغرب محمد بن عبد الله من خلال تبادل الهدايا.

9- مذكرات تيدينا[11]:

هذا مقال لإيميريت حول مذكرات تيدينا؛ العبد الذي عاش في قصر الداي محمد الكبير بمعسكر، ويبدؤه بترجمة صاحب المذكرات الذي ولد بـ Uzès عام 1758 وكان ينتمي إلى عائلة بورجوازية حاولت رسم خط حياة ابنها من خلال إدخاله إلى مدرسة دينية، غير أنه تمرد واختار لنفسه الحياة العسكرية، ثم مال إلى السفر عبر البحر لممارسة التجارة وهو ما أوقعه أسيرا في يد البحارة الجزائريين.

يذكر كاتب المقال أن علاقات حسنة كانت تربط فرنسا وإيالة الجزائر عام 1779 غير أن تيدينا ألقي عليه القبض على متن سفينة إسبانية فاعتبر معاديا واقتيد أسيرا إلى مدينة الجزائر، ثم بيع إلى وكيل باي معسكر محمد بن عثمان الكبير الذي رقاه في المناصب حتى صار خزندار أي مشرفا على الجانب المالي بالقصر.

ومثلما تحدث تيدينا عن قصر الباي وأعطى صورة عن حياة المسلمين بشكل عام تحدث عن فرنسا القرن الثامن عشر وتقاليدها. فبعدما تعرض "لاستبداد" التقاليد الإسلامية – حسب

إيميريت – ها هو يتعرض لتعسف التقاليد المسيحية كالسلطة الأبوية المناقضة لقوانين الطبيعة.

غير أن تيدينا لم يرقَ إلى درجة الفيلسوف روسو وهو يحاول أن يطلعنا عبر أسلوبه الفقير على مغامرات الحب التي كان يخوضها كل يوم، ومع ذلك تعتبر قصصه الحقيقية مساهمة في التعرف على الحساسية البورجوازية عشية الثورة الفرنسية.

كما يشبّه إيميريت تيدينا بـ Le Chevalier des Grieux الذي ربطته علاقة حب بـ Manon Lescault وهما بطلا قصة ألفها l'Abbé Prévost ونشرت عام 1731، ويعتبر وجوده بقصر الباي سببا في عدم ثبات طبعه.

كان تيدينا يحسن الإسبانية والإيطالية والعربية، وقد فكر في دخول عالم الدبلوماسية منذ 1785 سنةِ كتابة مذكراته – بعد رجوعه من الجزائر – فاستقر بصقلية وظل 04 سنوات ببالرما و بها تزوج من Del Vento التي سيضيف اسمها إلى اسمه لاحقا فيصبح Thédenat-Duvent، وفي 1789 ذهب إلى مسين Messine ثم اشتغل مع القنصل Lallemant وصار مستشاره.

ثم يتتبع إيميريت حياة تيدينا خطوة بخطوة؛ زواجه وإنجابه ومشاركته في الثورة وتبوأه لمناصب دبلوماسية عليا ومنها نائب قنصل بجنوة، ونائب قنصل بالإسكندرية تحت حكم نابليون بونابارت ثم قنصل بالقاهرة تحت حكم لويس الثامن عشر.

وحين قرر نابليون الهجوم على مدينة الجزائر جمع تيدينا ذكرياته وكتب مذكرة عنها عنوانها: Coup d'œil sur la Régence d'Alger وبعث بها إلى تاليران مذكرا من خلالها بما قامت به البحرية الجزائرية، وبأن قوة الداي قائمة على جبن الدول التجارية المستعدة دوما لدفع الإتاوات، وبأن حملة قوية على الجزائر تجعل فرنسا سيدة عليها ولن يكلف ذلك الدولةَ شيئا لأن ملايير الداي وحدها –حسب تيدينا– تغطي كل التكاليف.

وبهدف نجاح الحملة اقترح تيدينا أن تتم مهاجمة تنس ثم الزحف على مدينة الجزائر لإجبار الداي على تسليم ذهبه وجميع سفنه الحربية، لتصنع فرنسا من الجزائر –عند احتلالها– دولة متحضرة وتجارية، ويذكرنا إيميريت بأن هذا العمل الذي قام به تيدينا تناوله كثيرون بالدراسة ومنهم *Charles-Roux في كتابه France et Afrique du Nord* avant 1830: Les Précurseurs de la Conquête. غير أن هذه الذكريات

القديمة التي ارتكز عليها تيدينا لم ترقَ إلى درجة مذكرات، ذلك أنه حاول تحريك صراع يكون له دور هام فيه ولكن بونابارت فهم -أكثر من الأسير السابق- أن صعوبات جمة ستعترض من يحاول بعث حملة مماثلة.

وبخصوص مصر حاول تيدينا إبراز آرائه في إمكانية تطوير بلد إسلامي شريطة أن يتم ذلك تحت إدارة رجل مستنير، وكان محمد علي صاحب هذه المكانة فكتب له قصيدة وألقاها على سمعه في إحدى الحفلات بعد أن ترجمت إلى التركية، كما أهداه كتابه التالي الذي ألفه حول إدارة مصر المدنية والعسكرية: L'Egypte sous Mehemet-Ali, ou Aperçu rapide sur l'administration civile et militaire de ce Pacha (1822). ولم يكن في الحقيقة مدحا للباشا بقدر ما كان مجموعة من التوجيهات لقيادة مصر من هذا القنصل الذي سمح لنفسه بالمطالبة ببعض الحرية للزراعة والتجارة والصناعة. وفي النهاية كتب مذكرة حول الحملة على الوهابيين عنوانها: Mémoires sur la Compagne de Mehemet-Ali, Pacha d'Egypte contre les Wahabites. غير أن هذا الكتاب لا

يوجد بأي مكتبة بباريس (أيام نشر المقال عام 1948) ولعله لم يرَ النور أصلا.

لم يغتنِ تيدينا من عمله الدبلوماسي على مدار 40 عاما، فقد ربى أبناءه السبعة بصعوبة، وتراكمت عليه ديون بلغت 24000 فرنك حين أحيل على التقاعد، ولم يكن كاتبا لامعا ولم تتميز كتاباته بشيء خاص، ولكنه كان أحد الغربيين الذين حاولوا فهم العالم الإسلامي، ولذلك كانت المادة التي حررها هامة للذين يؤرخون للجزائر خلال العهد العثماني.

وضمن القسم الثاني من مقال إيميريت نجد حديثا عن مصادر تاريخ الجزائر خلال القرن الثامن عشر، وأهمها -حسبه طبعا- كتاب الدكتور شو القسيس الإنجليزي بمدينة الجزائر بين 1720 و1732 إضافة إلى كل من الألماني هابنسترايت ومواطنه رهبندر Rehbinder والقنصل الإنجليزي بروس Bruce والفرنسي فونتور دو بارادي الذي يمثل أهم مصدر. وجدير بالملاحظة أن إيميريت أورد عناوين كتب هؤلاء جميعا في الهوامش.

أما غير هؤلاء فيعتبرهم علماء طبيعة أمثال Peyssonnel وDesfontaines الذي زار معسكر قادما من مدينة الجزائر

بمعية ساعاتي دوفيني (ينحدر من دوفينيا Dauphiné جنوب شرق فرنسا) أمضى 20 عاما في خدمة الداي. ورغم أن كتاب دوفونتان كان حول الغطاء النباتي بشكل عام فإنه يسمح بمراقبة بعض التأكيدات التي قدمها تيدينا، وإن لم يُمضِ سوى 03 أيام بمعسكر ولم يطلع على مؤسسات البلاد وتقاليدها. أما القديس Poiret فقد زار بايلك الشرق لكنه أطلق في كتابه العنانَ للبديع بشكل رهيب.

ثم يمضي إيمريت ليعرفنا بأهم الأسرى والعبيد الذين كتبوا حول الجزائر كالأسير الذي اشتراه الثالوثيون وكان قد ترك مذكرات عام 1785 (لم يذكر اسمه) وDumont الذي أمضى 34 سنة عبدا بالجزائر ولكنه اتصف بالمبالغة الكبيرة حتى صار الاعتماد عليه صعبا للغاية، فقد ذكر بأن بالجزائر نعاجا أذيالها طويلة تُحمل على عربات ذات عجلتين، وأن طول عنقود العنب قدم ونصف.

ويشير إيميريت أخيرا إلى كتاب باننتي Pananti وينعته بـ "السطحي" مخالفا بذلك ظن صاحبه أنه ضمّنه معطيات تشير إلى ثقافته وتمرسه، منبها إلى أنه أوصى بتوجيه حملة ضد الجزائر وإيجاد مستوطنة أوربية على سواحل إفريقيا، فكان له أثر سياسي خاصة بعد أن استخدمه ناشر عمل القديس Reynal حول تجارة

الأوربيين بإفريقيا رغم أنه لم يقدم سوى معطيات ثانوية عن الجزائر في بداية ق 19.

في القسم الثالث من مقال إيميريت حديث عن قيمة مذكرات تيدينا التاريخية، والتي تعتبر اعترافات بالأخطاء التي ارتكبها المؤلف دون انتظار "صفح منا"، وقد ظل على ديانة أسرته، بورجوازيا شجاعا حتى وإن كانت حيويته قد أدت به إلى طيش وتهور. إن هذه المذكرات -حسب إيميريت دائما- هي الوحيدة التي كتبت حول الجهة الغربية من الجزائر في القرن 18 وقد تعجب من أن أحدا لم يدرسها حتى هذا الوقت (1948).

صحيح أن هذا الأسير كان ساذجا فلم يجمع معطيات ثمينة حول حياة "الأهالي" (كما يسميهم إيميريت مستخدما مصطلحات الفترة الاستعمارية) الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولكن كانت له ميزة العيش مع شخصيات هامة على رأسها الباي الكبير. ويعود إيميريت مجددا إلى التذكير بأن تيدينا لم يشأ سوى قول الحقيقة، ثم يعرج على أهم مصدر محلي تحدث عن الباي المذكور وهو –في تقديره- "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني" لابن سحنون الراشدي الذي يظن الناس أنه بالغ في ذكر خصال الباي لكن مذكرات تيدينا جاءت لتؤكد معطياته بشكل واضح. فهي تتحدث

عن الباي الشجاع الذي يحافظ على عادات المجتمع، ولا يحرم نفسه شرب الخمر لأنه بعيد عن التعصب، وقد زار ليفورن ومرسيليا وكان يعرف الإيطالية جيدا وبعضا من الفرانكا، ويبحث عن التعاون مع المسيحيين ومن ذلك تثمينه لقدراتهم الإدارية.

يرى إيميريت أن تيدينا أثبت أن بايلك الغرب صار غنيا زمن الباي الكبير، وهو ما يظهر من خلال التصدير وعلو قيمة الدنوش التي تُبعث إلى داي الجزائر. ويصل من خلال تقديمه لهذه المذكرات إلى أن الربع الأخير من القرن 18 يمكن اعتباره نهضة جزائرية، ويأسف لأنها توقفت بسبب الثورات الداخلية وحروب "الإمبراطورية" التي أعادت "الفوضى المهلكة". ثم يتساءل في الأخير: هل كانت هذه الحضارة الإسلامية المتواضعة بشمال إفريقيا قادرة على النهوض باعتمادها على نفسها لو كانت ظروف السياسة الخارجية أحسن؟ ولم ينسَ التنبيه إلى أن على المؤرخين الاهتمام بهذه المسألة اعتمادا على الوثائق المعروفة وتلك التي لا ينبغي التخلي عن البحث عنها.

وابتداء من الصفحة 157 يأتي عرض مذكرات تيدينا...

10- أنيس الغريب والمسافر[12]:

ارتقى مسلم بن عبد القادر إلى درجة باش كاتب في عهد الباي حسن بن موسى الذي تولى حكم البايلك عام 1826 بينما نقرأ في عنوان دلباش: أنه باش دفتار لدى الباي حسن بين 1800 و1813 وفي هذا خطأ لأنه تولى الكتابة لدى حسن قبل أن يكون بايا. كما ينسِب الكتاب إلى مسلم بن محمد بينما هو معروف باسم والده عبد القادر. (وقد جاء في ترجمة الأستاذ رابح بونار للمؤلِّف عند تحقيقه لأنيس الغريب والمسافر قوله: مسلّم – بتشديد اللام – بن عبد القادر الوهراني كما جاء في أول كتابه "أنيس الغريب والمسافر"، وجاء في كتاب الديوان المطرب أنه محمد بن مسلم الوهراني وهي زيادة لا نجد لها مستندا صحيحا[13])

وتبعا لهذا الموضوع الخاص بانتفاضات الدرقاوية ضد الحكم العثماني بالجزائر يبدأ دلباش حديثه عن درقاوة دون مقدمة عن الكتاب أو صاحبه، فيذكر نسبها ومعناها في ثلاث حالات اعتمادا على أسترهازي، ثم يقسم العمل إلى مراحل:

1- 1800 – 1805

2- 1805 – 1807

3- 1807 – 1808

4- 1818 – 1813

وخلال هذه المراحل الأربع يعالج الموضوعُ علاقة الصراع التي سادت بين الحكم العثماني بالجزائر والطريقة الدرقاوية حتى 1813 والذي انتهى:

أ- "بحملة الثلج" التي قادها الباي بوكابوس ضد بوترفاس صهر ابن الشريف الدرقاوي بجبال ترارة والتي نتج عنها تدمير تام لقرية بوترفاس أعقبه سقوط ثلوج كثيفة كادت تقضي على جيش البايلك وهذ هو أصل التسمية.

ب- بحملة الباي قارة بغلي خليفة بوكابوس على بني ممراد الذين تم سحقهم لكن آغا الدواير قدور ابن إسماعيل وقايد الزمالة محمد بن قدور لقيا حتفهما في هذه الأحداث. وفي هذا الإطار تحرك قارة بغلي على مستوى جبال ترارة ووصل حتى تاجرة ثم عاد إلى تلمسان ومنها إلى معسكر ليلتحق بوهران. وينهي كلامه بعبارة "كل شيء هادئ" ...

استنتاج عام:

- اهتم الفرنسيون بالتأليف الذي كان خلال العهد العثماني، فجمعوا المخطوطات وصنفوها وحققوا بعضها ونشروه، وكانت المجلة الإفريقية منبرا مهما سهّل المهمة لهؤلاء الباحثين.

- لجأ الفرنسيون إلى تغييب مؤلفات كثيرة بعدما اطلعوا على ما فيها، ككتاب محمد بن بلقاسم الزاوي حول حملة الباي محمد بن عثمان الكبير على الشلالة، و"در الأعيان" لحسين بن أحمد خوجة بن الشريف، وكتاب "الدواير والزمالة وحركاتهم" لأحمد بن القاضي باشاغا فرندة، والذي طُبع سنة 1883 بوهران، وكان صاحبه حاكما لجهة فرندة وجنوبها، وقد حضر موقعة قتل بوبراتر بالبيض في 1864، وعانى غدر الفرنسيين الذين ورطوه في مسائل محلية معقدة مثل قضية بلعباس.

- حملت هذه المؤلفات ملامح العصر الذي كتبت فيه، فقد تحدث أبو راس مثلا عن قضية ادعاء الشرف وما تلاها من تفاعلات اجتماعية تحولت إلى فعل سياسي، وأرخ لفتح وهران، وعالج ابن هطال مسألة إخضاع التيجانية والقبائل الواقعة

على الطريق بين معسكر وعين ماضي، وراح تيدينا يعرض – من خلال مذكراته –المشهد العام لإدارة بايلك الغرب.

- اعتمد الفرنسيون على هذه المؤلفات كمصادر للترجمة لبعض الشخصيات الفاعلة كما رأينا مع برنيي حين درس حياة محمد الكبير. بل ترجموا بعضها ترجمة حرفية ورأوا فيها مبالغة شديدة كما هو الحال مع الثغر الجماني.

- كثيرا ما اعتمد الفرنسيون في إنجاز مقالاتهم في المجلة الإفريقية على مؤلفات جزائرية دون إشارة إلى ذلك، فقد كتب GUIN مقالا عنوانه:

Quelques notes sur les entreprises des Espagnols, pendant la première occupation d'Oran[14].

وأشار إلى اعتماده على أبي راس الناصر الذي وصفه بالحافظ، لكنه لا يحيل على عنوان الكتاب الذي اعتمد عليه ولا يذكر صفحة ولا اقتباسا، وهو ما يُشكل على القارئ.

الهوامش:

1) Gorguos, Bou Ras, historien inédit de l'Afrique septentrionale, Vol 05, Année 1861, pp 114 – 124 / pp 210 – 222 / pp376 – 385

2) ARNAUD, Voyages extraordinaires et nouvelles agréables par Mohammed Abou Ras Ben Ahmed Ben Abd El-Kader EN-NASRI : histoire de l'Afrique septentrionale. V 22, année 1878, pp 434-443 / V 23, année 1879 pp 33-48 et 115- 133 et 211 – 224 et 273 – 294 et 393 – 400 et 449 – 459 / V 24, année 1880, pp 70 – 80 et 133 -146 et 459 – 473 / V 25, année 1881, pp 284 - 306 et 371 - 392 et 467-477 / V 26, année 1882, pp 118-129 et 271-286 et 460-473 / V 27, année 1883, pp 76-88 et 146-160 et 342-354 et 464-478 / V 28, année 1884, pp 301-317.

3) L. GUIN, Beylik d'Oran: de la suppression du manuscrit: les réflexions brillantes de Jupiter ou commentaire du «collier précieux » qu'avait rédigé Mohammed Bou Ras ben En- Naçer. V 31, année 1887, pp 72-80.

4) ضمن كتابه "فتح الرحمن في شرح عقد الجمان"

5) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ج1، ص 92

6) L. GUIN, Le Collier de perles précieuses ou mention des principaux personnages d'origine noble (de la région) du R'Eris. V 35, année 1891, pp 241-280

7) Delpech (Adrien), Résumé du « Bostane » (Le Jardin) ou Dictionnaire biographique des Saints et des Savants de Tilimsane. V 27, année 1883, pp 380-399 / V 24, année 1884, pp 133-160 et pp 355-371.

8) A. BODIN : L'agrément du lecteur : Notice historique sur les Arabes soumis aux Espagnols pendant leur occupation d'Oran, par Si Abd-el-Kader el Mecherfi.
9) Louis Bresnier, Expédition de Chellala par le Bey Mohamed el Kebir, V04, année 1860, pp175-186
10) Gorguos, Notice sur le Bey d'Oran, Mohammed el Kebir, V 01, année 1856, pp 403-416 / pp 454 - 463 et V 02, année 1857, pp 28-46 / pp 223-241
11) M. EMERIT, Les aventures de Thédenat, esclave et ministre d'un Bey d'Afrique (XVIIIe siècle), (Mémoires de Thédenat), Vol 92, Année 1948, pp 143-183 et 331-362.

12) Adrien Delpech, Résumé historique sur les soulèvements des Derk'Aoua de la province d'Oran d'après la chronique d'El-Mossellem

Ben Mohammed, Bach Deftar du Bey Hassan de 1800 à 1813. V 18, année 1874, pp 38-58

13) مسلم بن عبد القادر الوهراني، أنيس الغريب والمسافر، تحقيق وتقديم رابح بونار، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 33

14) V 30, année 1886, pp 312-322.

الموضوع الثالث

قضـايـا ثقافية من بايلك الغرب الجزائري

مقدمة:

عرفت الجزائر في ظل الدولة العثمانية حالة من التفاعل بين الوضعين الداخلي والخارجي لا سيما ما تعلق بالعلاقات مع القوى الأوربية وعلى رأسها إسبانيا صاحبة المستعمرة في وهران والمرسى الكبير، ولعل هذا ما خلف حركية صنعتها بايلكاتها بسلطتها وقبائلها وبنشاطاتها الاقتصادية وممارساتها الثقافية بل وبتجاوزاتها الضريبية وثوراتها المتعددة.

والناظر إلى خصوصية بايلك الغرب العسكرية – بحكم الوجود الإسباني بوهران والخلاف المستمر مع المغرب الشريفي– يتوقع فتورا في حركة التأليف تأثرا بالوضع العام، بيد أن الواقع غير ذلك، فقد كان بايلك الغرب أكثر اهتماما بالكتابة بغض النظر عن خصائصها ومميزاتها.

وساهم في هذا الثراء على مستوى بايلك الغرب وجود خزائن غنية بالمخطوطات كتلك التي كان يعتني بها الباي محمد الكبير أو تلك الموجودة لدى العائلات المهتمة بالعلم وتحصيله كالمشارف أو حتى بعض الزوايا الدينية كزاوية القيطنة مثلا.

وقد ساهمت هذه العوامل في تحول معسكر إلى قبلة لطلبة العلم وصارت مازونة قطبا يأوي إليه الناس حتى من خارج الإيالة، وحين تحررت وهران عام 1792 تحولت إلى مركز حضاري بعد انتقال العلماء إليها واستقرارهم بها كأبي راس وابن سحنون وابن هطال وغيرهم.

وحين احتل الفرنسيون الجزائر اهتموا بدراسة الوضع الثقافي الذي كان سائدا ببايلك الغرب فنقبوا عن المخطوطات، واهتموا بتاريخ المؤسسات الدينية والشخصيات الفاعلة، وانتبهوا حتى إلى بعض الكتابات المعلقة على الجدران أو الموضوعة على القبور، ولم يهملوا آثار الإسبان بوهران بل درسوها متأسفين على ما طالها من إهمال.

وقد ارتأينا تتبع ما نشروا من هذا القبيل في المجلة الإفريقية، غير أن تتبعنا لهذه المواضيع لا يعني بالضرورة ترجمتها كاملة وإنما هو محاولة تقريبها من القارئ من خلال تقديم لمحة عامة عن الموضوع المعالج وأهم الخصائص التي امتاز بها مع بيان أهداف المؤلفين أحيانا وأخطائهم أحيانا أخرى.

وقبل البدء في عرض مادة البحث نود التنبيه إلى أننا آثرنا معالجة كل موضوع على حدة وأدرجنا رقم جزئه والصفحات التي ورد ضمنها مباشرة في العنوان عوض إدراجها في الهوامش وذلك بهدف التسهيل على القارئ، علما أن بعض المواضيع لم تأتِ ضمن جزء واحد فقط من المجلة الإفريقية وإنما ضمن أجزاء مختلفة كالموضوع الرابع مثلا.

العرض:

01 – **Le Clerc, Inscriptions arabes de Mascara, Vol 04, année 1860, pp 42 – 46**

يتحدث Le Clerc عن مسجد العين البيضاء بمعسكر ويقول إن الأوربيين المقيمين منهم أو السياح ينظرون إليه بإعجاب، لكنه حُوّل إلى مخزن للحبوب بسبب وقوعه على أطراف المدينة وهو ما حرم عامة الناس والفضوليين من الوصول إليه.

ويتأسف الباحث للحالة التي آل إليها المسجد، ثم يصف محرابه الذي كُتبت في أعلاه العبارة التالية: "أما بعد، أمر بتشييد هذا الجامع المبارك خليفة السيد السلطان محمد باي بن عثمان". وعلى جانبي المحراب يمينا ويسارا قرأ Le Clerc العبارة

التالية: "انتهى بحمد الله على يد المعلم أحمد بن محمد بن حاج حسين ابن صارمشق التلمساني رحمه الله في أول يوم ذي القعدة عام خمسة وسبعين ومائة وألف".

أما وسط المحراب فقد هال صاحب المقال إذ رأى عليه عبارة رائعة لم يستطع نقلها لكنه انبهر من خلالها بالمهندس صارمشق فتوقف عنده ووجد اسمه في ساحة المسجد بمعسكر (لم يذكر اسم المسجد لكنه أشار إلى أنه مسجد مستعمل أي يقصده الناس للصلاة) ضمن العبارة التالية: "كتب الحروف محمد بن صارمشق". وحسب المعلومات التي جمعها Le Clerc فإن في تلمسان بعض الفنانين الذين ينتمون إلى عائلة صارمشق، والكلمة تعني بالتركية نبات (Bryone) الذي يطلق عليه في الجزائر اسم "الكرمة البيضاء". وفي نهاية المقال وردت إضافة من الناشر ذكر فيها أن "السيد حمو صارمشق مولود بتلمسان ويسكن مدينة الجزائر" وهذا اعتمادا على حكم قضائي صدر بصحيفة الأخبار بتاريخ 18 أكتوبر 1859.

ولم يُنهِ Le Clerc مقاله حتى نقل إلينا نصا مكتوبا على جدارية من رخام ألصقت بالحائط. وقد اعتنى النص بما حبّسه

الباي محمد بن عثمان الكبير بمعسكر. وبعد النص ترجمة لمعانيه باللغة الفرنسية. وهذه صورة تحمل جزءا من النص المقصود.

* بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله *
هذا بيان المحبسات السلطان ابن السلطان السيد محمد باى ابن
سيد عثمان باى رحمه الله على الجمع الاعظم الكاين في حومة سيدى
على بن محمد الذى انشاه وشيده مع مدرسة الحايطة ودار الوضو
الغربية منه مع الجبانة المحادية له ايضا * الاول من دلك
جميع الدار المجاورة للمسجيد المذكور الملاصقة بالمطاهرة وباصطبل
حاجى ثم جميع الحمام الكاين بقرب المسجيد ايضا المحدود
بالطريق الداهبة الى المدينة وسى على بن محمد ومن الجهة
العربية بزنقة سيدى على بن عبد القادر ومن الجهة الشرقية
بالزنقة الداهبة الى فرن الحمام المذكور ثم بحيرة قريبة من الجامع
ايضا المعروفة ببحيرة سيدى محمد الوهرانى المجاورة لبحيرة الحبس
والجبانة المذكورة منتهية الى الطريق الصاعدة من عين البيضا
الداخلة الى المدينة ثم اربعة عشرة حانوتا المكتنفية برحبة الزرع

02 – **L. ARNAUD: Histoire de l'Ouali Ahmed Ettedjani. Vol 5, année 1861, début pp 468 – 474**

هذا المقال مستخلص من "الكناش"[1] وفي أوله ذكر للاسم الشائع للتيجاني وهو التيجيني، وذكرٌ لمولده عام 1150هـ /

1737م ولاسم والده سيدي محمد ابن مختار المتعلم الذي استفاد من علمه كثير من الناس. أما نسب التيجاني فهو نسب شريف يعود إلى الحسن بن علي بن أبي طالب.

ويتتبع Arnaud المراحل التي قضاها الشيخ في تعلم العلوم الدينية – وهو ما أهله لرتبة قاضٍ – ثم الاهتمام بالعلوم الصوفية وعلوم التوحيد، والرحلات الداخلية خصوصا إلى تلمسان والخارجية سواء إلى المشرق أو إلى المغرب ثم العودة إلى الوطن، ثم الرحلة إلى المغرب وتأسيس زاوية هناك بفاس، وميلاد ولديه، وصولا إلى وفاته في 14 شوال 1230 / 19 سبتمبر 1814م.

وقد تحدث أرنو عن محاولة ثأر ولد التيجاني محمد الكبير للحملة التي انطلقت ضد أبيه على يد الباي عصمان أو مصطفى. وهنا يجب التنبيه إلى ما يلي:

- كانت الحملة الأولى على عين ماضي على يد الباي محمد الكبير ولم يأتِ أرنو على ذكرها تماما ولا على ذكر الكتاب الذي خلدها وهو "رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الصحراوي"

لابن هطال التلمساني. وكانت الحملة الثانية على يد ولده الباي عصمان، أما الباي مصطفى فقد اختلف مع الدرقاوية ووقعت بين الطرفين معركة فرطاسة الشهيرة جهة معسكر.

- ذكر الكاتب أن ولد التيجاني هزم قريبا من وهران **sous** « **les murs d'Oran** » ولكن المؤرخين متفقون على أنه قتل بعواجة قرب معسكر وأن رأسه قطعت وحملت إلى مدينة الجزائر، وهو ما لم يذكره أرنو.

- يبدو أن المقال غير مكتمل لأن في آخره كلمة « à suivre » وهو ما يعني وجود جزء آخر من المقال غير أني لم أعثر عليه في أعداد المجلة التاريخية. ويبقى الأمر مطروحا لعل باحثا يجده فيملأ هذا الفراغ.

03 – Berbrugger, Épitaphe d'Ouzoun-Hassan, le conquérant d'Oran en 1708. V09, année 1865, pp122-126

قدم Serpolet المسؤول عن تسيير أملاك الدولة ونائب كاتب الجمعية التاريخية الجزائرية إلى المتحف هدية متمثلة في قطعتين مزينتين تحملان كتابة بالعربية على رخام أبيض (كانت على قبر عربي) وقد حصل عليهما من عجوز يهودية وجدتهما

في بادية بوزريعة، حيث كانت إحداهما – حسب المقال طبعا – غطاءً لمجرى مياه والثانية بحائط قديم قرب بعض الأغراض القديمة.

يقول بربروجر صاحب المقال بأن الأولى كانت لقبر مصطفى بن رجب الذي لم يعنِ شيئا للباحثين بينما كانت الثانية أكثر أهمية (لأنها لأوزن حسن). ثم يعرّج على قبور المسلمين آنذاك فيذكر أن كلا منها يحمل شاهدين، واحدا على الرأس والثاني على القدمين وعليه يُكتب اسم المتوفى وتاريخ وفاته ومهنته مع عبارات تحمل رجاء الله بتوليه بالرحمة والمغفرة.

طول القطعة المعنية 28 سم وعرضها 27 سم بينما سمكها 5 سم وعلى ظهرها نُقشت مزهرية مزينة تحيط بها الأزهار. كما علقت سبحة عليها حبات على شكل حبات البيض.

أما الكتابة التي عليها فهذا نصها: ... **مدينة وهران صباح يوم الجمعة في ست وعشرين من شوال سنة 1119 وتو (هكذا والمعنى توفي) في يوم السبت في تسعة عشر من سنة 1122.**

يقر بربروجر أنه لم ينتبه إلى (26 شوال سنة 1119) في بادئ الأمر ثم عرف أنه يقابل يوم 20 جانفي 1708 وهو اليوم الذي دخل فيه أوزن حسن مدينة وهران منتصرا، وهو صهر الداي محمد بكداش.

ثم ينقل فقرة قصيرة من "التحفة المرضية" لبيان مطابقة هذا التاريخ، ويستنتج أنها لأوزن حسن **(حسن الطويل)**. بعد ذلك يعمد بربروجر إلى الفراغ الواقع في الفقرة والذي ترتب عنه غياب الشهر الذي توفي فيه أوزن حسن. وبعد التحليل يصل إلى أنه شهر محرم أو شهر صفر.

ملاحظة1: كان ابن ميمون قد ألف "التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية" للتعريف بالداي محمد بكداش الذي فتحت وهران في عهده، وتحدث عن صهره الوزير أوزن حسن الذي كان له دور بارز في هذا التحرير، غير أن أوربيين كثيرين – كما ذكر محمد بن عبد الكريم محقق التحفة ص 81 – نسبوا كتابه هذا إلى مؤلف مجهول. ومنهم:

– brockelmann geschichte der arabischen literatur, 1902 / 2, p 608

- Fagnan, Catalogue General des manuscrits, 1893
- Gorguos, Notice sur le Bey d'Oran, in R.A, 1857
- Leon Fey, Histoire d'Oran, 1858, p 125, p 136

ملاحظة 2: استقطب فتح وهران الأول اهتمام كثير من العلماء فنظموا شعرا فيه، ومنهم:

- مفتي تلمسان محمد بن أحمد الحلفاوي الذي نظم أرجوزة تحوي 72 بيتا شرحها تلميذه المغربي عبد الرحمن الجامعي. ونجد هذه الأرجوزة في كتاب ابن ميمون سالف الذكر.
- أبو عبد الله محمد بن محمد الثغيري شيخ ابن ميمون الذي ألف أرجوزة فيها 18 بيتا
- أبو العباس أحمد الفيلالي التلمساني، وقد اعتمد الجامعي على تأليفه في شرح أرجوزة الحلفاوي.

04 – **MONNEREAU, Les inscriptions d'Oran et de Mers–el–Kebir, par M. le Général Sandoval. V 15, année 1871, pp 173 – 183 et pp 271 – 284 et pp 353–361 et pp 334 – 446 / V 16, année 1872, pp 53 – 69 et pp 89–104 et pp 187 – 200 et pp 278 – 291 et pp 343–355**

قدّم مونرو كتاب ساندوفال المعنون بـ « Les inscriptions d'Oran et de Mers–el–Kebir » المنشور عام 1867 حول الاحتلال الإسباني لهذه المنطقة من الساحل الإفريقي قرابة 03 قرون. ونوّه بالجهد الذي بذله الجنرال المؤلف خلال 10 سنوات زار فيها المناطق المعنية وجمع من الشواهد ما يعزز كتابه، وهي عبارة عن كتابات إسبانية وجدها – حسب مونرو – بين الأنقاض، وقد جاءت لتعزز "معاني الوجود الإسباني المدافع عن الحضارة الأوربية".

وأبدى مونرو أسفه وأسف الكاتب ساندوفال بسبب الفراغ الحاصل في الفترة الأولى من الاحتلال الإسباني (54 سنة

الأولى) حتى 1563 حيث لم يجد شيئا يخص أهم الأحداث فيها كموت بربروس أو خضوع "مملكة تلمسان".

يعالج مونرو هنا أيضا تاريخ احتلال وهران (19 ماي 1509) ويقول إنه لا غبار عليه تماما بينما المشكل قائم بخصوص احتلال المرسى الكبير أربع سنوات قبل ذلك (ذاكرا أن الرأي الشائع يجعله في الثلث الأخير من سبتمبر ومنتصف أكتوبر 1505)، وينتقد بربروجر لأنه اعتمد على سواريز "الجندي المؤرخ" بشكل **مفرط** باعتباره قريبا من الأحداث وبحث عنها في مصادر رسمية، بينما الواقع يثبت أنه لم يبحث في شيء وهو ما يمكن أن نستدل عليه من عبارة ذكر فيها أن المرسى الكبير لم يُحتل إلا في 1506.

هذا ويشيد مونرو بعمل الجنرال ساندوفال – قبل البدء في عرضه – باعتباره بذل جهدا كبيرا في جمع المادة ليكون نافعا "**للمالكين** الحاليين لهذه الأرض الإفريقية". وفي هذا إشارة قوية إلى دور التاريخ في خدمة القضية الاستعمارية.

05 – **GUIN (L.) Epigraphie indigène: une inscription arabo-turque de Mascara. V 40, année 1896, pp 79-81**

يتحدث GUIN عن لوحة بمعسكر تحمل كتابة عُثر عليها حين تم هدم المنازل العربية، وهي من الرخام الأبيض المائل لونُه إلى الرمادي، وفيها إطار طوله 0.323 م وعرضه 0.313 م نقشت داخله حروف غلب عليها الخط المغربي رغم محاولة كاتبه تقليد الخط المشرقي من خلال نقاط حرفي الفاء والقاف.

تحوي الكتابة 11 سطرا باللغتين العربية والتركية، وهي مقسمة إلى قسمين متباينين:

الأول بالعربية ويخص الأسطر الستة الأولى، وهي مبسوطة على حواف الإطار، والثاني باللغة التركية باستثناء بعض الكلمات من السطر الأخير والتي كتبت بالعربية، وقد أحيط بشريطين أفقيين على الحافة اليمنى منفصلين عن شريط الحافة اليسرى ببعض الزخرفة.

وردت الأسطر الستة الأولى مكتوبة بالعربية، وحوت مجموعة من الأخطاء. وقد آثرنا نقلها كما هي مع تصحيح الخطأ وأردفنا ذلك بصورة لها كما وردت في الكتاب:

السطر الأول: بسم الله الرحمن الرحيم

السطر الثاني: والصلوة (الصلاة) والسلام أفضل (المفروض على أفضل – قد وردت الفاء بنقطة في أسفلها رغم أن Guin أكد عكس ذلك في البداية)

السطر الثالث: رسوله محمد الكريم وعلى آله وأصحابه

السطر الرابع: مرشد صراط المستقيم (المرشد إلى الصراط المستقيم) صاحب الخيرات

السطر الخامس: والحسنات سيد حسن باي ابن موسى زاد الله (كان المعنى في السطر الرابع منصرفا إلى سيدنا محمد فإذا بالسطر الخامس يربطنا مباشرة بالباي حسن بن موسى. وهمزة "ابن" وجب حذفها لوقوعها بين علمين)

السطر السادس: تعالى خيراته وحسناته وعف (عفا) عنه (عن) سيئاته ولوالديه (وغفر لوالديه).

1re ligne. بسم الله الرحمن الرحيم

2e ligne. والصلوة والسلام افضل

3e ligne. رسوله محمد الكريم وعلى اله واصحابه

4e ligne. مرشد صراط المستقيم صاحب الخيرات

5e ligne. والحسنات سيّد حسن باي ابن موسى زاد الله

6e ligne. تعالى خيراته وحسناته وعف (*sic*) عنه سيّاته ولوالديه

امين.

ثم تأتي ترجمتها إلى الفرنسية، تليها 05 أسطر بالتركية، وقد نقلها صاحب المقال إلى الفرنسية، وهذه ترجمتها إلى العربية:

بنى حسن هذه العين لله تعالى، نفع الله بها ومنح الناس السلام والصحة والعافية، ورضي عنه في العالمين ورحم آباءه وأجداده.

العام 1240 (25 أوت 1824م) نقشت من قبل أحمد بن محمد.

1re ligne. حسبة لله حسن باي بوجشهة ايلدي بنياد

2e ligne. صحفه خطرايله اجنان صحة عافيته اولسون

3e ligne. اول باري خدا ايكي جهانده ايلسون شادان

4e ligne. وهم ايلسون رحمة اباء واجدادنه رب غفران

5e ligne. سنة ١٢٤٠ سوده أحمد بن محمد

لاحظ Guin أن كاتب الجزء الأول لم يكن عارفا بالعربية، ثم رسم للقارئ صورة تعبيرية حول المشهد الذي عاينه هو بنفسه: في أعلى الكلمة الأولى على اليمين زخرفة دائرية تنتهي بوردة، وتنتهي على اليسار في الأسفل بين الشريطين اللذين ينتهيان بخط دائري على الطرفين والحافة الرقيقة فوق صورة تمثل سمكة.

وختم Guin مقاله بنقل شهادة سكان معسكر بأن هذه الكتابة كانت معلقة على أحد جدران سوق الحبوب المغطى، حيث بنيت الكنيسة الجديدة في العهد الاستعماري. ولكنه لم يشر أبدا إلى أن الفرنسيين ساهموا في تدمير هذا الإرث الكبير.

06 – DELPECH (A.) Histoire d'El-Hadj A'bd-El-K'Ader: par son cousin El-Hossin Ben A'Li Ben Abi T'Aleb (Traduction), V 20, année 1876, pp 417-455

هذه ترجمة دالباش لكتاب تاريخ الأمير عبد القادر لابن عمه الحسين بن علي بن أبي طالب بن سيدي قادة بن المختار. وقد آثرت إدراجه هنا رغم حديثه عن فترة تنتمي إلى المرحلة

الاستعمارية، والمبرِّر هو أن الكتاب شمل الحديث عن أسرة الأمير والمنطقة الغربية عموما خلال الفترة السابقة.

وقع الحسين بن علي بن أبي طالب أسيرا يوم 11 أفريل 1843 بعد هجوم Tempoure على قوات الأمير بقيادة ابن علال، وقد أسره اثنان من قوات "القوم" فلما تعرفا عليه سهلا له مهمة الفرار، وبعد تنقله لسنوات بين قبيلة وأخرى انتهى به المطاف إلى الوقوع في الأسر مجددا بالبليدة وظل كذلك حتى 1848، ليتم إلحاقه بالأمير في تولون لكن الأخير كان مستاء منه بسبب "خضوعه المبكر" للفرنسيين.

خلال فترة الأسر بالبليدة قرر الحسين تأليف كتاب عن الأمير ولم "ينسَ نفسه" فيه. غير أن كتابه لم يتميز بالأسلوب الراقي وإنما باستخدام لغة عادية، حيث اعتمد على ذاكرته في ترتيب مادته فبدأه بتقديم شجرة النسب الخاصة بعائلة الأمير عبد القادر ثم مضى إلى "النبوءات" التي تعلقت بإمارته، ومن هناك إلى "انتخابه".

يتحدث الحسين عن حالة الجزائريين وعن الأحداث التي أعقبت نشأة الأمير، ويقر دالباش بأن المعطيات التي يحملها الكتاب تصبح أكثر أهمية بدخول مرحلة الأسر، لكنه آثر حذف ما تعلق بالتجوال في الجزائر ليمر مباشرة إلى الخاتمة التي تضمنت آمال الكاتب على غرار بقية الجزائريين.

ويخبرنا دالباش في نهاية المقدمة التي كتبها عن الكتاب بأنه استخدم ترجمة "منطقية وواضحة" للمعاني الواردة فيه دون الابتعاد عن مقتضى "الحرف" ولعل سبب رغبته في إنجاز هذا كله هو التفاصيل الخاصة التي وردت في الكتاب عن الأمير، والتي وجب توضيح كثير منها في الهوامش.

07 – **CAILLE, Jacques, Le curé de Mascara et l'Emir Abd El Kader (Août 1845). V 88, année 1944, pp 227 – 238**

يعالج Caillé في هذا المقال قضية في غاية الخطورة متعلقة بنظرة الفرنسيين إلى الأمير، الأمير الإنسان قبل أن يكون الأمير القائد. إنها مسألة متعلقة بمكانته في قومه ولدى الآخر. إنها قضية محاولة راهب معسكر إدخال الأمير في المسيحية وما نتج

عنها من تجاذبات. **ونشير ابتداء إلى أن القضية تعود إلى بداية العهد الاستعماري ورغم ذلك آثرنا إدراجها هنا لأهميتها ولعلاقتها بالموضوع السابق.**

في 26 أوت 1845 وصل رجلان إلى القنصلية الفرنسية بطنجة فاستقبلهما مستشارها المترجم Fleural فأخبراه أنهما فرنسيان جاءا من جبل طارق لزيارة الموانئ المتوسطية بالمغرب لكنهما تركا جوازي سفرهما بالقنصلية الفرنسية بجبل طارق لأن موظفا أخبرهما أنهما لن يكونا بحاجة إليهما ما داما يريدان قضاء أيام فقط على سواحل إفريقيا. وبما أنهما يريدان الذهاب إلى تيطوان فقد جاءا لطلب الإذن من القنصلية.

لقد بدا كلامهما غريبا خاصة وأن لواحد منهما صفة رجل دين، وليست معهما وثيقة واحدة، ولذلك دعاهما الموظف الذي استقبلهما إلى مقابلة القنصل شخصيا. وحين صارا أمام القنصل أخبره أحدهما أنه راهب معسكر ثم أظهر له جوازي سفرهما الصادرين من نيابة المديرية التابعة لوزارة الداخلية بوهران، وأن رفيقه أخوه وليس خادمه كما ادعى بهدف توفير بعض المصاريف.

اغتاظ القنصل كثيرا لعدم صراحتهما منذ البداية فحاول الراهب إقناعه بأنه خاف أن ينتشر خبر وجوده بالمغرب بسبب حضور أشخاص آخرين بالمكتب، وها هو يخبره بمجرد أن صار هو وأخوه معه دون غيرهما. في الأخير أعطاهما القنصل إذنا بالذهاب إلى تيطوان وبعث معهما أحدا لحراستهما وأوصاهما بعدم التوغل وراء حدود المدينة وبعدم الذهاب إلى البادية، وأن عليهما اتباع نصائح عميل القنصلية الذي يرافقهما.

خرج الرجلان من طنجة يوم 27 أوت، وفي اليوم الموالي وصلت إلى القنصل أخبار زادت من شكوكه فيهما. لقد حاولا خلال وجودهما بطنجة معرفة إمكانية الذهاب إلى فاس، وهما يلبسان لباسا عربيا عوض اللباس الأوربي الذي قد يعرضهما للخطر. وقدما نفسيهما على أنهما مراسلا الأمير عبد القادر بجبل طارق وتيطوان، وأوضحا عن نيتهما في الالتحاق به، وكان يومها مقيما بشرق المغرب الأقصى.

أدت هذه المخاوف بالقنصل الفرنسي إلى التفاوض ليبعث النظام المغربي لجنة إلى باريس تبين لوزير الخارجية الفرنسي موقف مولاي عبد الرحمن من قضية الأمير عبد القادر، وقد فكر

القنصل في حجم استفادة هذا الأخير من زيارة L'abbé Creuzat.

ونظرا لتزايد حجم مخاوف القنصل بعث إلى تيطوان أحد المتعاونين السابقين معه وهو Vautrai لمتابعة الراهب Creuzat وأوصاه بمراقبته بشكل مستمر حتى لا يفلت منه متخفيا في لباس عربي. فانطلق Vautrai إلى تيطوان يوم 28 أوت وظل يراقب الراهب لمدة 04 أيام، ولم يكن الوصول إليه صعبا خاصة وأنه رآه بطنجة. وأفلح في النهاية في ثنيه عن الذهاب إلى فاس والتوغل في شرق المغرب.

قرر Creuzat العودة إلى طنجة التي وصلها يوم 02 سبتمبر واتجه إلى القنصل، وفي خضم حديثهما أخبره بنيته حيث كان يريد خدمة بلاده فرنسا من خلال الاتصال بالأمير عبد القادر لدعوته إلى اعتناق المسيحية ووضع السلاح. ثم فتح راهب معسكر قلبه للقنصل وأقر له أن فكرة الاتصال بالأمير راودته طويلا حتى اعتبرها وحيا إلهيا فكتب إلى الحاكم العام Bugeaud وإلى أسقف الجزائر Mgr Dupuch.

ورغم أن الأول لم يجبه مباشرة إلا أنه أخبر الأسقف بأن للراهب Creuzat أن يفعل ما يشاء بشرط ألا يتصل بالأمير مباشرة من معسكر، كما أن الأسقف لم يشأ أن يعطل الراهب فأعطاه حرية التصرف. وفي خضم هذا الحديث جدد Creuzat للقنصل رغبته في الالتحاق بمعسكر الأمير غير أن الأخير رفض لأمرين:

-الخطر المحتمل الذي قد يهدد حياة الراهب

-أثر هذا الأمر على العلاقات الفرنسية المغربية.

وكنتيجة لهذا التخوف عرض القنصل على الراهب استغلال فرصة وجود السفينة Le Chacal التي تؤمّن الرحلة بين طنجة ووهران للعودة إلى الجزائر، وهو ما قبله الراهب فكانت مغادرته للمغرب الأقصى يوم 03 سبتمبر 1845.

يذكرنا صاحب المقال Caillé بأن هذه المعطيات حملتها برقية قنصل فرنسا بطنجة إلى وزير الخارجية الفرنسي يوم 06 سبتمبر 1845 مصنفا هذه الأحداث ضمن خانة "الخطر"، ثم يتساءل Caillé عن غياب هذه الحادثة عن الكتب التي أرخت للأمير عبد القادر ولبوجو وحتى لغزو الجزائر ولتاريخيها الديني، وهذا رغم أن

Jean−Baptiste Creuzat كان راهبا بمعسكر وأن كنيسته المسماة Saint Pierre أقيمت بمسجد بومعزة، وأنه ظهر عام 1845 على قائمة رجال الدين بالجزائر على أنه "خادم المدينة وقسيس المستشفى". وقد وصفه رجل الدين Tournier في كتابه La Conquête religieuse de l'Algérie بـ "الراهب الممتاز". كما أنه رجل الدين الوحيد الذي كان يقوم بمهام كبرى بين السكان، بل وكان ينتقل كل 03 أشهر إلى تيارت وسعيدة ليشرف على المناسك. ومدَحَه أسقف الجزائر Dupuch بمؤسس كنيسة معسكر، وأنه استطاع أن ينظم أبرشية كاملة خلال بضعة أشهر.

بعد هذا التفصيل تساءل Caillé عن مهمة راهب معسكر Creuzat بالمغرب وعرض لنا قضية أسر جنود الأمير عبد القادر عام 1840 للمتصرف Massot الذي تدخلت زوجته على مستوى أسقف الجزائر Dupuch لتحريره، وكانت نتيجة ذلك عملية تبادل الأسرى يوم 19 ماي 1841 قرب بوفاريك حيث التقى الأسقف بمحمد بن علال خليفة الأمير على مليانة. وبعد أيام انتقل الراهب Suchet إلى غريس فعومل بطريقة جيدة وتم

إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الباقين، وهو ما جعله يقتنع بالعمل على "إرساء دعائم السلام وزرع الانسجام بين الشعبين" ومنطقي جدا – حسب Caillé دائما – أن يكلّف Creuzat بإتمام المهمة رغم المعارضة الشديدة التي أبداها السياسيون والعسكر لكل تدخل من قبل رجال الدين في السياسة.

ولعل هذا ما شجع Creuzat على محاولة إقناع الأمير بالدخول في المسيحية ليكون ذلك ضربة موجعة للذين يعارضون ما رغب أسقف الجزائر Dupuch في تحقيقه وهو إدخال الجزائريين في المسيحية، وهي الرغبة التي نتج عنها صراع شديد أدى إلى استقالة الأسقف.

ويعترف Caillé بأن دعوة الأمير إلى المسيحية كانت تشبه "المدينة الفاضلة" فرغم التسامح الذي عرف به الأمير عبد القادر تجاه المسيحيين واليهود فإنه – حسب Caillé دائما – كان شديد الإيمان "بدين محمد".

كما يحاول الكاتب فهم موقف القنصل الفرنسي بطنجة وهو يمنع كاهن معسكر من الاتصال بالأمير، ذلك أن الاتفاقية

الفرنسية المغربية الممضاة في 10 سبتمبر 1844 جعلت مولاي عبد الرحمن يعتبر الأمير عبد القادر خارجا عن القانون ويعمل على إخراجه من المغرب أو حصره في مدينة بغرب المملكة ليكون بعيدا عن الجزائر. غير أن تنفيذ هذا لم يكن سهلا لأنه كان سيدخل النظام المغربي في حرب مع السكان الذين اعتبروا الأمير "بطل الإسلام". لكن في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تضغط على النظام الشريفي لينفّذ الاتفاقية السابقة تدخل راهب معسكر قاصدا الأمير للتفاوض. إن هذا التدخل كان حتما سيفسد المخطط الفرنسي لذلك عارضه القنصل de Chasteau بشدة. ورغم هذا يبقى تحرك الراهب Creuzat ينم عن مكانة خاصة للأمير الذي استحوذ على القلوب بالجزائر.

08 - **CASENAVE. J. Contribution à l'histoire du Vieil Oran: Mémoire sur l'état et la valeur des places d'Oran et de Mers-el-Kebir. Vol 66, Année 1925, pp323-368**

هذه مذكراتٌ كتبها Don José Vallejo في الأيام الأولى لعام 1734م مباشرة بعد توليه حكم وهران والمرسى الكبير نهاية

1733م، وهو ثالث حكامها بعد استعادتها عام 1732. وقد قام CASENAVE بترجمتها إلى الفرنسية بعد أن قدم لها ببعض المعطيات الرئيسية حول المدينة وكيف خضعت للإسبان في 1509 معرجا على تحريرها الأول من قبل الباي بوشلاغم عام 1708 واستعادتها من قبل الإسبان في 01 جويلية 1732 ثم تحريرها الثاني على يد الباي محمد بن عثمان الكبير عام 1792.

وقبل عرض التقرير ذكّر المترجم بموقف البايلك وقبائله من سيطرة الاسبان على المدينة عام 1732 والمتمثل في محاولة استعادتها، وكيف أن هذه القبائل استقرت على أطرافها على أمل النجاح في دخولها مجددا، وقد ضاق مركيز وهران Santa Cruz بهذا ضرعا فقرر الخروج بحامية فيها 100 جندي وفرق الجزائريين وراح يطاردهم لكنه اصطدم بعد ذلك بجيش كبير فمات من حاميته الكثير وفرت البقية، حيث تمت – بعد مطاردة جادة – إصابةُ الماركيز و30 من جنده وألقي القبض على الماركيز De Valdecanas والكولونيل Joseph Pinel وكادت المدينة تُستعاد لولا وصول كتيبتي Ultonia و Aragon اللتين رجحتا كفة الإسبان.

وفي 10 جوان 1733 فقد الماركيز Villadarias 800 جندي فعزلته إسبانيا رغم الجهود التي بذلها في تحصين المدينة، وعينت مكانه Don Vallejo الذي ظل في المنصب حتى 1738، وقد عُرف باهتمامه بتحصين المدينة مستعينا بثلاثة مهندسين؛ Don Diego Bordik – Don Jean Ballester Zafra – حيث أقام حصنين جديدين هما: Saint Ferdinand وSaint Charles وأتم حصونا سابقة هي: Saint Philippe وSanta Cruz وSaint Jacques وأدخل تعديلات على الحصون التالية: Sainte Barbe وPierre Saint و Saint Ignace وأعاد بناء كنيسة القصبة Chapelle de l'Alcazaba.

ومن إنجازات حاكم وهران Don Vallejo إنشاؤه لكتيبة نظامية من الجزائريين الذين يسكنون المدينة، وقد وافقت وزارة الحربية الإسبانية على هذا الإجراء في 10 ماي 1734 وأصدرت قانونا خاصا بهذه القوات التابعة للإسبان. وفي 1738 استدعت إسبانيا هذا الحاكم ليشغل منصبا عاليا في الجيش الملكي وعوضته بـ Don Joseph Basile Aramburu.

وفي نهاية التقرير الذي كتبه Don Vallejo يصل إلى نتيجة صدمت كثيرا من الإسبان مفادها ضرورة التخلي عن وهران والمرسى الكبير، معطيا الأدلة على أن دولته لا تستفيد من احتلالها لهما لا ماديا ولا أخلاقيا، وإنما تصرف أموالا طائلة بغير فائدة، وهو ما يفسر لهجته المتشائمة التي حملتها عبارته الأخيرة في التقرير: "**لا يمكننا إلا أن نقول بأن إسبانيا قايضت أكواما من الذهب بجبال من الحجارة، ولا يمكنها أبدا أن تستفيد من هذه الممتلكات، لا لشرفها ولا لتجارتها ولا لنشر الديانة الكاثوليكية**".

أما التقرير فقد قسم على الشكل التالي:

القسم الأول:

- وصف المرسى الكبير ووهران
- وصف الحصون
- وصف العين (منبع الماء) والحدائق
- وصف الميناء

القسم الثاني:

- تأملات في احتلال وهران ووضعيتها
- ماذا يكلف الاحتفاظ بها

القسم الثالث: القبائل الجزائرية الرئيسية في مملكة تلمسان

القسم الرابع:

- سياسة حكام وهران تجاه الجزائريين
- الضرائب
- الغزوات
- توزيع الغنائم

الخاتمة.

ورغم أن هذا التقرير لم تأخذ به السلطة الإسبانية ولم تترك وهران والمرسى الكبير فإنه يمثل للباحث مادة هامة يستفيد منها في التعرف على وهران وأبراجها وسكانها والمرافق العمومية فيها، وعلى القبائل المحيطة بها، وعلاقة الإسبان بهم وغيرها من المسائل الهامة. لكن يجب التعامل بحذر مع فكرة CASENAVE القائلة بأن الملك كارلوس الثالث قرر ترك المدينة عام 1792 بعد أن دمرها زلزال 1790. لأن في ذلك مجانبة كبيرة للحقيقة التي روتها المصادر المحلية وهي تحدث عن صراع قوي بين محمد الكبير باي معسكر وبين الإسبان وحصار ساهم فيه حفظة القرآن الكريم والقبائل، وهو ما انتهى بقبول الإسبان بتسليم المدينة.

09 - **BODIN, Marcel, Notes et questions sur Sidi Ahmed-Ben-Yousef. Vol 66, Année 1925, pp 125-189**

يبدأ الباحث حديثه ببيت شعري للإمام الشافعي:

أحب الصالحين ولست منهم ... رجاء أن أنال بهم شفاعة

ثم يمضي إلى بيان قدر سيدي أحمد بن يوسف الذي يعتبره بعضُ القائمين على قبره بمليانة في الدرجة الثانية بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، منبها إلى أن هذه الدرجة محفوظة لصهره الإمام علي رضي الله عنه. ثم يتحدث عن عصر سيدي أحمد الذي ينحدر من زناتة فيقول إنه عصر اضطرابات كبرى فقدَ فيه المسلمون غرناطة وانتقل الصراع الإسلامي النصراني إلى المغرب الأوسط، مشيرا إلى أن وفاته رحمه الله لم تسبق سقوط مملكة تلمسان الزيانية إلا بثلاثين عاما، وقد صار طرفا أساسيا في صراعها مع العثمانيين حيث وقف معهم ضدها.

ويرى صاحب المقال بأن هذا الولي الصالح مدفون بمليانة ولكن شهرته ضربت الآفاق حيث صار الناس يزورونه من المغرب

وتونس وليبيا، يرجون بذلك الخير من الله. منبها إلى أن كثيرا من الكلام المنسوب إليه لا علاقة له به، وإنما نُسب إليه ليجد آذانا صاغية، ويستشهد بـما ذكره René Basset في ذات الشأن ليدعّم فكرته هذه.

أما بخصوص حياة سيدي أحمد فهناك مصدران هامان ترجما له وذكرهما الباحث:

الأول عنوانه: "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف راشدي النسب والدار" لمحمد الصبار قاضي قلعة بني راشد المولود سنة 1517 والذي كان والده عالما صديقا لسيدي أحمد.

الثاني عنوانه: "ربح التجارة ومغنم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة على ضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف دخيل مليانة" الذي ألفه علي بن أحمد بن الحاج موسى الجزائري عام 1273هـ / 1856م.

المقال هام جدا يحيل على مصادر كثيرة ويتطرق إلى مواضيع مختلفة تدور في مجملها حول حياة سيدي أحمد بن يوسف ومناقبه

ومساهماته وعلاقاته بمريديه. وفيه حديث عن زوجاته؛ لالا ستي، وكليلة التي تزوجها بالقلعة وخديجة بنت محمد المريني وعائشة بنت سيدي قاد، وعن زاويته براس الماء التي قال عنها: "زاويتنا كسفينة نوح من دخلها نجا من الهلاك".

10 – **H. BOUSQUET, Promenades sociologiques. Vol 91, Année 1947, I. Une medersa déchue: Mazouna, pp 305-308. II. Aïn el Hout, pp 308-309.**

يقسم الباحث عمله هذا إلى قسمين كبيرين:

أولا: مدرسة تتهاوى؛ مازونة:

ضمن هذا الموضوع المقتضب الذي كتبه Bousquet بمازونة يوم 21 مارس 1947 نجد وصفا لمدرستها العتيقة مع بعض التأريخ وبعض النقد والمواقف الدالة على انتمائه إلى المدرسة الاستعمارية. فرغم أهمية المقال في التعريف بالوضع الذي آلت إليه مدرسة مازونة في نهاية النصف الأول من ق 20م احتوى على أفكار خطيرة قللت من قيمة هذا الصرح العلمي التي شهد بها العلماء على مدى عدة قرون.

وبعد أن يعترف الكاتب أنه مر مرورا سريعا بمازونة يؤكد على صحة المعلومات التي ينقلها عن مدرستها اعتمادا على مادة لكاتب **مجهول** قدمها إليه حاكم مدينة Renault (سيدي امحمد بن علي حاليا) وهي مرقونة على 13 صفحة وتحوي بعض الأخطاء المطبعية، لكنها كتبت قبل الحرب العالمية الثانية بلغة راقية، وقد خُصصت منها أربع صفحات ونصف صفحة للمدرسة، مع الإشارة إلى أن هذا المؤلف **المجهول** زعم أنه تلميذ لـ Réné Basset.

ويعرّف الكاتب مازونة بأنها مدينة صغيرة يسكنها الأهالي وهم في حدود 6000 نسمة، وتقع على حدود عمالة الجزائر لكنها تابعة لبلدية Renault المختلطة التابعة لعمالة وهران. ثم يبدأ بالحديث عن مدرسة مازونة التي عرفت شهرة كبيرة لكنها لم تعد كذلك ..

(Ce spécimen curieux de l'enseignement traditionnel du Fiqh n'est plus que l'ombre de lui-même)

بناياتها تحوي مسجدا بني في 1852 من قبل السلطات العسكرية، وعلى فناءٍ ملاصق لها تطل غرفُ الطلبة وقبةٌ مدفون فيها الشيخ بوراس المتوفى عام 1917 وزوجته، لكن لم تعد لهذه البنايات قيمة معمارية.

يتحدث Bousquet عن الشيخ بن شارف المنحدر من مستغانم والذي بدأ بإعطاء دروس الفقه المالكي في هذا المكان في 1665، واستمر هذا مع أسرته خلال القرون الثلاثة الموالية. وإذا كان الباحث قد اعترف بالقيمة العلمية لبرامج المدرسة فإنه شكك في عدد تلامذتها (800 تلميذ) الذين كانت تحويهم في آن واحد معتمدا على الوثيقة التي بين يديه والتي تقول إن عدد التلاميذ كان بعدد أسر مازونة لأن كل واحدة منها كانت تأوي على الأقل طالبا واحدا.

وخير أيام المدرسة – حسب صاحب المقال – هو نصف القرن الذي درّس خلاله الشيخ هني سي بوراس المذكور سابقا أي نهاية القرن 19 وبداية القرن 20، وابنه العجوز المفتي "الحالي" سي أحمد (يقصد سنة 1947). وبناء على الوثيقة التي حصل عليها الكاتب فإن التعليم بمازونة اتصف بخاصيتين:

1- تقديم الدروس بالعامية وهذا – في نظر الكاتب – يرفع من قيمة المدرسة لأنه لا يشترط مستوى معينا من العلم لحضور الدروس.

2- كون العلم "تقليديا" حيث يقتصر على شرح مختصر خليل بالطرق "القديمة جدا". ويستغل الكاتب الفرصة ليهاجم هذا التعليم قائلا إن هذه العائلة درّست نفس العلم مدة ثلاثة قرون دون أن يتغير شيء ودون أن تنتعش عقول المعلمين والتلاميذ.

ويشير الباحث إلى أن كتاب الشيخ خليل ينقسم إلى أربعة أقسام يتكفل كل معلم على التوالي بقسم من عام إلى آخر، ويحفظه التلاميذ عن ظهر قلب مستخدمين لوحا كذلك الذي يُستخدم لحفظ القرآن الكريم. ويُمضي التلميذ سنيتين في حفظ الكتاب ليصل إلى المراجعة حيث يقوم التلاميذ القدامى بتعليم الجدد وهي طريقة يثني الكاتب عليها لفعاليتها. وفي المدرسة عادة أربعة أساتذة لكن في فترة زيارته لها لم يجد سوى ثلاثة، وهم المفتي وأخوه وابنه، مشيرا إلى أن كل موظفيها – حتى المنظف – ينتمون إلى نفس العائلة، وكل شهاداتهم تقتصر على ما حصلوه بهذه المدرسة.

أما إلقاء الدروس فيتم في قاعة الصلاة بالمسجد حيث يجلس الأستاذ على كرسي عالٍ مصنوع من خشب مَطْلي، أما التلاميذ فيجلسون حوله على سجاد، ويقوم أحدهم بقراءة بعض السطور ليتكفل الأستاذ بشرحها. ويزعم صاحب المقال أن المجهول صاحب الوثيقة حضر عدة حصص ولم يقف على تعليق واحد من الأستاذ فكل ما يقوله منقول عن غيره.

وكان هذا **المجهول** قد حضر في نوفمبر حفلا بمناسبة استئناف الدروس حيث اجتمع الأساتذة والتلاميذ والنبلاء في المسجد، وكان الدعاء ليعم الخير المدرسة خلال العام المقبل، وكان شيخ المدرسة يبارك الاجتماع.

وفي نهاية المرحلة الدراسية يسلم الأساتذة لتلامذتهم "الإجازة" ويظل النجباء منهم بالمدرسة ليعمّقوا معارفهم حيث تستغرق الدراسة فترة تتجاوز خمس سنوات وقد تصل إلى عشر. أما المتفوقون فيظل بعضهم بالمدرسة حتى ينهي عشرين عاما.

وقد سمع كاتب المقال من المفتي أن الدراسة لا تكلف الطالب شيئا، فالمأوى مضمون ومجاني وتتكفل كل عائلة ميسورة بمطعم طالب، ولا تقبل المدرسة إلا من صار عمره 18 عاما على الأقل.

لقد كانت مدرسة مازونة ذات أثر كبير فقد تخرج منها طلبة كثر خاصة من الجهة الغربية من الجزائر بل وحتى من المغرب لاسيما جهة الريف، غير أن الكاتب ادعى بناء على ما سمع من **المجهول** صاحب الوثيقة أن الجنرال ليوتي Lyautey أعجب كثيرا بآراء الطلبة المغاربة المتخرجين من مازونة والتي رافعت لصالح التوغل الفرنسي بالمغرب.

وفي نهاية المقال خلاصة لرأي صاحبه في المدرسة، فهو يرى أنها عرفت مع الأيام تراجعا ملحوظا حتى أنها صارت في المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية تستقبل ما بين 40 طالبا و60 لكن هذا العدد لم يتجاوز العشرة في الفترة التي زارها فيها، منهم اثنان من ريف المغرب الأقصى.

وينسى الباحث أو يتناسى أن ظروف الاستعمار هي التي خلّفت هذا الوضع الكارثي على مدرسة مازونة وعلى غيرها،

فيسجل النتيجة التالية: "أشك في أن للمدرسة أي ضرورة من حيث التأثير الفرنسي على الإسلام، فهي تقدم نموذجا للتعليم لم يعد يقبله المؤمنون المعاصرون".

ثانيا: عين الحوت:

زار كاتب المقال عين الحوت في 23 مارس 1947 وذكر أنها قرية صغيرة تقع على بضعة كلومترات من تلمسان في جهتها الشمالية، يسكنها مرابطون من أصل شريفي، وتحيط بها قباب متنوعة يزورها الناس، وعين الحوت التي يتحدث عنها Bousquet هنا هي التي أخذت القرية اسمها منها.

وتقع هذه العين المقدسة عند السكان في مدخل القرية، ولم يعد لها – على أيام الكاتب في 1947 – أي مظهر جمالي يستحق الإعجاب، فالماء يخرج من فوق صخرة كبيرة ليسقي الأرض، وقد أنجزت أعمال كثيرة حول العين، حيث يوجد أمام الصخرة حوض ثلاثي الشكل يُفترض أن أسماكا حمراء تسبح فيه. وقد نبه إلى أن التقيد بما تقتضيه الحقيقة يفرض عليه قول "يفترض" لأنه لم ير هذه الأسماك. والظاهر أنها تختفي تحت

الصخرة، وقد وضعت لافتة كبيرة باللغة الفرنسية تذكّر بان صيدها ممنوع.

وتحيط بالعين وأسماكها أسطورة يذكّرنا المؤلف هنا بأنها جاءت في كتاب "تلمسان" للكاهن Bargès وملخها أن عائشة بنت سيّد القرية تحولت إلى سمكة حين دخلت العينَ لتختبئ خوفا من جعفر ابن سلطان تلمسان الذي كان يطاردها. أما الطقوس التي تتم ممارستها حول العين – حسب المعلومات التي جمعها الكاتب – فهي كالآتي:

1- في عيد الفطر وعيد الأضحى يزور الناس العين وقبور الأولياء، وقد أقر صاحب المقال أن أحدا لم يخبره بأن طقوسا معينة تمارس في هذين اليومين.

2- ضمن احتفاليات الطريقة العيساوية يأتي في يومها الثالث ركب إلى العين.

3- بمناسبة المولد النبوي الشريف يأتي الأطفال إلى العين للسباحة.

4- بمناسبة صلاة الاستسقاء تطوف البنات وهن يحملن دمية تسمى "بوغُنجة" ثم يقمن بالاستحمام، لكن المسؤول عن القرية من

قبل السلطات الفرنسية منعهن من القيام بذلك في آخر موكب سبق زيارة الكاتب للعين في 1947.

ويختم Bousquet مقاله بأن قدسية العين وأسماكها عند الأهالي لم تحفزهم على الاعتناء بها، فقد بدى له أنها عانت من الأوساخ المحيطة بها، ورغم هذا زارها ليتعرف عليها وعلى أسماكها "المعظمة"

ملاحظة: اشتهرت عين الحوت بمدرستها التي تحدث عنها مارسال إيميريت في «L'Etat intellectuel et moral de l'Algérie en 1830», pp 202 – 203 وبزاويتها، وكان الدايات يقدّرون مرابطي أولاد ابن منصور بعين الحوت، فقد صدر لصالحهم أمر من الداي أحمد عام 1695م إلى باي الغرب ليعفيهم من كل الواجبات المخزنية، بل ويفرض على الناس احترامهم، ثم جُدد لهم هذا عام 1712م في عهد الداي علي شاوش، وفي 1761م أمر الداي ببناء ضريح ومقام للشيخ محمد بن عبد الله بن منصور الحوتي بعين الحوت.

استنتاجات عامة:

- اهتم الفرنسيون بمسائل ثقافية متنوعة، وكان للمؤسسات نصيب من هذا الاهتمام، فمثلما كتبوا عن المسجد العتيق بمعسكر كتبوا عن مدرسة مازونة وعن عين الحوت بتلمسان.
- التفت الباحثون إلى الشخصيات الفاعلة ذات التأثير في المجتمع وفي السياسة، فهنا حديث عن سيدي أحمد بن يوسف وهناك حديث عن التيجاني. وفي موضع آخر اهتمام بالأمير عبد القادر وما كُتب عنه وعن عائلته.
- لطالما تقاطعت السياسة والثقافة في اهتمامات الفرنسيين، وهنا مثال واضح يستغل الكاتب من خلاله بعض الآثار الثقافية بوهران ليؤصل لأهمية الوجود الإسباني بها متأسفا على غياب شواهد من هذا القبيل تخص فترة وجيزة جدا خلال القرن 16م.
- لم يهمل الباحثون آثار المسيحيين السابقة للوجود الفرنسي بل ثمنوها بالدراسة والتحليل، ومن ذلك المذكرات التي كتبها حاكم وهران الإسباني عام 1734 بعد السيطرة الثانية عليها.

هامش:

[1] - كتاب ألفه أحد محبي الشيخ وهو علي الحرازمي الفاسي وهناك الكناش الخاص الذي ألفه الشيخ التيجاني وليس فيه إلا

خطه وخط خليفته الحاج علي التماسيني وصاحبه محمد ابن العربي الدمراوي.

الموضوع الرابع

الاحتلال الإسباني لشمال إفريقيا في العصر الحديث

الملخص:

اهتم المؤرخون المحليون والأجانب بالوجود الإسباني بشمال إفريقيا في العصر الحديث، والذي تم ضمن الترتيبات الكبرى التي كانت بين القوى المنافسة لإسبانيا آنذاك خاصة البرتغال، لاسيما وقد طالت مدة الاحتلال لبعض المناطق واتسعت رقعته.

وجاءت المجلة الإفريقية في القرن التاسع عشر لتنشر أعمالا كثيرة لباحثين درسوا تاريخ الوجود الإسباني ومؤسساته في شمال إفريقيا والشخصيات التي كان لها دور فيه، ورسموا خرائط للمدن المحتلة وأنجزوا أعمالا حول حكامها الإسبان وحول الحملات التي شنت لإخضاعها، وهذا ما تتبعناه بالدراسة لنرسم للقارئ صورة عامة عن هذا الاحتلال، مراعين شروط الكتابة في المجلة والتي جعلتنا نقتصر على أهم المواضيع التي تم إحصاؤها.

مقدمة:

عند مطالعتي للمجلة الإفريقية لاحظت اهتماما واسعا بتاريخ الوجود الإسباني بشمال إفريقيا، وأن هذا الاهتمام لم يقتصر على فترة معينة من عمر المجلة وإنما استمر في التدرج زمنيا خلال

النصف الثاني من القرن 19 وحتى منتصف القرن 20 تقريبا، وعالجه مؤرخون من مدارس مختلفة، فمن بربروجر إلى كازناف مرورا ببروديل وصاندوفال وبريمودي وقين وغيرهم.

وإذا كان الاحتلال في حد ذاته قاسما مشتركا بين هذه الدراسات فإنها اختلفت من حيث مواضيعها، فمن حملة دي أنقولا عام 1535 على تلمسان إلى المؤسسات ومناطق السيادة الإسبانية بشمال إفريقيا مرورا باستعادة وهران عام 1732 وحكامها خلال المرحلة الاستعمارية كلها والعلاقات التي جمعت الدولتين الفرنسية والإسبانية من خلال القنصلية الفرنسية بوهران.

ورغم التنافس الاستعماري الرهيب الذي عرفته القارة الأوربية خلال القرون الأخيرة فإن القارئ يلحظ – بما لا يدع مجالا للشك – كثيرا من التعاطف الذي يبديه الكتاب الفرنسيون من خلال المجلة الإفريقية مع الاحتلال الإسباني لوهران، بل كثيرا من الأسف على "تفريط" الإسبان في هذه المدينة بعدما أفرحوا الأوربيين باحتلالها انتقاما من البحرية الجزائرية التي أقضت مضاجعهم زمنا طويلا.

جدير بالذكر أيضا أن هذه الدراسات اعتمدت على مصادر كان أصحابها قريبين جدا من الحدث بل من مراكز صناعة القرار سواء على مستوى الإدارة الإسبانية سابقا أو الإدارة الفرنسية لاحقا، وهو ما أوهمهم بصحة المعطيات التي نقلوها وأنهم صاروا فوق احتمال الوقوع في الخطأ.

هذا وإن دراستنا لمجموع هذه المقالات تندرج ضمن دراسة عامة لبايلك الغرب الجزائري في المجلة الإفريقية، وكنا قد اخترنا هذه لعلاقتها المباشرة بالاحتلال الإسباني لوهران والمرسى الكبير، دون إقصاء لما تبقى من المقالات التي خصصنا لها حيزا آخر ننشرها فيه. كما أننا آثرنا التخفيف على القارئ ومساعدته من خلال تحديد موطن المقال من المجلة الإفريقية أو مواطنه حين تتعدد، فقد نُشر بعض هذه المقالات ضمن أعداد متعددة وفي صفحات متباعدة أحيانا داخل العدد الواحد.

العرض:

أولا: الاحتلال الإسباني الأول لوهران:

1- بعض الملاحظات حول الحملات الإسبانية خلال هذه المرحلة[1]:

هذا مقال مادته مأخوذة من دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران للزياني حسب ما ورد في الصفحة الأخيرة منه، غير أن الباحث GUIN لم يشر إلى هذا في بداية المقال ولا في ثناياه وهو ما يعطي القارئ انطباعا خاطئا إذ يظل يتتبع الأحداث ظانا أنها له دون غيره. ثم يشير GUIN إلى اعتماده على أبي راس الناصر الذي يصفه بالحافظ، لكنه لا يحيل على عنوان الكتاب الذي اعتمد عليه ولا يذكر صفحة ولا اقتباسا، بيد أنه ينهي بعض كلامه بعبارات توحي بالاقتباس، فبعد حديثه عن تحرير وهران الأول يورد العبارة التالية: Dieu donne la puissance à qui Il veut، وينهي حديثه عن الصراع الإسلامي المسيحي بما يلي: Telle est la volonté du Maitre des mondes ! Loué soit-il !

وجدير بالذكر أن آخر صفحات المقال لا تحوي كلمة Trad التي تدل على الترجمة. أما الهامش الثاني في ذات الصفحة فيحتوي على تذكير من هيئة التحرير جاء فيه: "ربما أتم GUIN مداخلته الهامة بنقد النص العربي الذي احتوى أخطاء كتاريخ الاستيلاء على قلعة بني راشد". لكن لم ترد أي إشارة إلى موضع هذه التتمة.

يستهل GUIN حديثه بالإشارة إلى أن إسبانيا احتلت وهران مرتين، ويقصد 1509م و1732م، ثم يوشّح مقاله بالحديث عن قوة إسبانيا المتنامية التي صارت تغزو اليابس وتجوب البحار مشيرا إلى شجاعة الجنود الإسبان وهم يغزون أرض الإسلام، وقد وضعوا صوب أعينهم الجزاء الذي يلقونه في الحياة الآخرة، ثم يعرج على شعور مشابه لدى الجندي المسلم، فيلتقي هذا وذاك وتسيل الدماء.

وبعد الحديث عن احتلال وهران الأول عام 1509 وتحريرها الأول في 1708 جاء الحديث عن الاحتلال الثاني الذي كان في 1144هـ / 1732 وانتهى عام 1206هـ / 1791م، وهو يختلف عن الأول تماما، فقوة الإسبان لم تعد على حالها، ولم يعد

باستطاعتهم فرض هيبتهم على القبائل المجاورة للمدينة، وفي المقابل تزايدت قوة الأتراك فأخضعوا كل بايلك الغرب باستثناء وهران والمرسى الكبير.

ويمضي GUIN إلى الحديث عن الحملات التي كان الإسبان يشنونها على مدن البايلك كتلمسان ومستغانم بتنظيمهم المحكم ومخططاتهم المدروسة، كما تحدث عن الحملات البسيطة التي كانت توجه إلى ضواحي وهران لتضغط على السكان وتعود ببعض الغنائم.

ومن ذلك هجوم الإسبان على غمرة في 1513 وموطنها غرب المرسى الكبير بين الجبال والبحر، ولها جنود أشداء. وفي 1514 جاء دور الونازرة على أطراف سبخة وهران فخضعوا للإسبان واعتنق بعضهم المسيحية !!!! وفي 1517 هاجموا قيزة على أطراف تامزورة وعادوا إلى وهران بغنائم هامة.

غير أن هذه المعطيات التي يسوقها صاحب المقال لم تمنعه من الوقوع في الخطأ حين تحدث عن الهجوم على قلعة بني راشد

وحدد تاريخه بـ 1520 بينما هو عند المؤرخين قبل ذلك أي في حياة عروج الذي قتل في 30 سبتمبر 1518.

ورغم هذا فإنه يعطينا بعض التفصيل حيث يحدثنا عن تواطؤ بوقلموس الزياني Boukelmous (نشير هنا إلى أن الزياني صاحب دليل الحيران يذكر أنه يسمى أبا قلموس لا أبا قلمون كما هو شائع، ويذكر في هذا بيتين من الشعر لأبي راس:

خامس عشر من عاشرٍ أنـاخ بها   الإسبانيـون أهلُ الشركِ والرجس

جــحافل الكفر قد حموا جوانبـها   وعن دفاعهم عجز أبو قلـموس[2]

ويحدثنا GUIN كيف تنكر الإسبان لوعودهم لأهل القلعة حيث أعطوهم الأمان ثم غدروا بهم فذبحوا كل من استطاعوا الوصول إليه. وفي 1523 جاء دور أولاد علي فأخضِعوا وكانوا يسكنون ذات المكان الذي سكنوه أيام كتابة المقال والذي حدده صاحبه بالبلدية المختلطة Saint–Lucien (زهانة حاليا). وفي 1528 غزا الإسبان شافع بسهل ملاتة حيث لازالوا يسكنون، وهم ينتمون إلى بلدية عين الأربعاء.

وفي مارس 1543 توجه إلى تلمسان جيش يتكون من 14000 مقاتل على رأسهم القائد الزياني حميدة العلج بن رضوان وغْرَبْ زعيم أولاد خلفة (الذين يسكنون عين تموشنت) واحتلوا المدينة 13 يوما حسب بعض الروايات وشهرين حسب روايات أخرى.

ثم يحدثنا GUIN عن زواتة في مسموط وعن وصول الإسبان حتى وادي الطاغية حيث الشيخ أبو مهدي عيسى بن موسى التيجاني الذي تنبأ بالهجوم ودعا الناس إلى الاختباء في الغابة. كما أورد فقرات عن فروحة والعايسية وغيرهم كالكرط مثلا في شمال سهل عواجة، دون أن ينسى ذكر دليل الإسبان رابح بن سولة زعيم السوالة. ويختم المقال بالآية الكريمة: "إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين" قبل أن يقر بالآتي: "كُتب من قبل الذي يرجو رحمة ربه محمد بن يوسف الزياني"

2- حملة دي أنقولا على تلمسان[3]:

يبدأ الكاتب مقاله بالتنبيه إلى أن هذه الحلقة من التاريخ لم تُفهم جيدا، وأن ما يقدمه هو الرواية الشائعة، ثم يمضي إلى

الحديث عن إسبان وُضعوا تحت تصرف أحد الزيانيَين المتنافسَين حول العرش، وقد قُضِي عليهم في معركتي تيفيدة وشعبة اللحم، ثم يمضي إلى التشكيك في هذه الحادثة الأخيرة قائلا إن الذين تحدثوا عنها لم يكونوا قريبين منها زمنيا كمارمول Marmol صاحب Description génerale de l'Afrique والذي أرخ لها بـ 1541 وسواريز وغيرهما، ثم يزعم أنه اعتمد على وثائق أرشيفية أنارت له طريق البحث.

يستعرض مشاكل العرش الزياني ودور خير الدين فيها، ثم دور ابن رضوان قائد بني عامر نائبا عن حفيده الأمير الزياني عبد الله. كما يشير إلى الصراع الزياني الزياني بين محمد هذا ومولاي محمد وكيف تحول دالكوت إلى حَكَم بينهما وظل الإسبان يعرضون خدماتهم على الطرفين ويقفون مع من يدفع أكثر.

يتحدث الكاتب أيضا عن غزو Angulo لتلمسان في جوان – جويلية 1535، لكنه يرفض رواية مارمول وسواريز القاضيتين بمروره عبر شعبة اللحم Défilé de la chair وانهزامه بها، مؤكدا أن الرسائل المحفوظة بالحكومة العامة لم تشر إطلاقا إلى هذا المكان. ويتساءل كيف ألقي القبض على Angulo ورفاقه

في تيفيدة Tifida ثم قضي عليهم في شعبة اللحم على بعد 40 كلم إلى الخلف على طريق وهران؟

كما يرفض الروايات القائلة بأن 600 جندي الذين زود بهم دالكوديت حلفاءه الزيانيين لم يبق منهم سوى A. Martinez و13 آخرين بعد المعركة الشرسة التي وقعت إضافة إلى 20 جنديا كانوا قد سلموا أنفسهم قبل هذا الوقت، ويعتبر هذه الرواية مبالغا فيها كثيرا، حيث يذكر أن عدد الأسرى كان 70 وأن البقية لم يُقض عليها كلها وإنما فرت مجموعة كبيرة والتحقت بوهران، ووقعت مجموعة أخرى أسيرة لدى الجزائريين في الطريق، وكان الهدف تبادل هؤلاء بأسرى القبائل في وهران أو التقرب من دالكوديت بتسليمه جنوده الأسرى أحياء. هذه وغيرها قضايا عالجها الكاتب.

وينهي الكاتب موضوعه بتساؤل آخر حول أصل التسمية "الطبوغرافية" لشعبة اللحم وحول اللقاء الذي وقع بها وأعطاها هذا المعنى الدموي. ويكلل ذلك بإقراره بعدم امتلاكه أي جواب، على أمل الحصول على شيء مقنع في المستقبل.

ثانيا: وعاد الإسبان من جديد:

1- الاحتلال الإسباني الثاني لوهران عام 1732[4]:

هذه ترجمة بربروجر لعمل كلاريانا حول احتلال وهران من قبل الإسبان للمرة الثانية عام 1732 بعد أن تم تحريرها على يد مصطفى بوشلاغم عام 1708 ونُقلت إليها العاصمة من معسكر. ولا يرى بربروجر – في المقدمة – عملا عالج هذا الموضوع أفضل من الذي بين أيدينا رغم أنه في هامش الصفحة الأولى ذكر بعض النماذج الناجحة التي وصفها بالمختصرة، ومنها:

Loverdo, Aperçu sur l'état d'Alger

Leon Fey, Histoire d'Oran

وكان CLARIANA قد نشر في 1733 ترجمة لكتاب لوجي دوتاسي الفرنسي الموظف بالقنصلية الفرنسية بمدينة الجزائر "تاريخ مملكة الجزائر" المطبوع بأمستردام عام 1725 (نافيا أن يكون قد أخذ الكتاب كله) غير أنه أضاف إليه ما تعلق بـ "استعادة السيطرة" على وهران من قبل الكونت مونتمار عام 1732. وقبل

البدء في الترجمة يدافع بربروجر عن الإسبان ويعتبر وجودهم بوهران والمرسى الكبير خلال ثلاثة قرون دفاعا عن الحضارة المسيحية.

تحت عنوان غزو وهران كتب كلاريانا 40 صفحة من 148 إلى 188، وقد بدأها بعزم الملك فيليب الخامس على إلحاق وهران بتاجه الملكي. ثم تحدث عن أهمية المرسى الكبير الذي اعتبره أحسن ميناء على مستوى الساحل كله. وعمد إلى وهران من حيث الموقع والاسم الذي أعطاه معانٍ لم يوافقه عليها المترجم.

في الكتاب وصف للقبائل التي كانت تسكن قرب وهران وكان أغلبها متعاونا مع الإسبان، وفيه ادعاء بأن هؤلاء كانوا يحمونها، والواقع انها كانت تدفع "الرومية" مقابل الأمان « Segura » وإلا سُلط عليها أشد أنواع العقوبات. ويمضي المؤلف في الحديث عن ظروف استعادة وهران والمرسى الكبير. وفي نهاية المقال إضافة تكفل بها المترجم وتحدث في أعلاها عن الباي بوشلاغم Bigotillos الذي لم يبدِ – حسبه – مقاومة شديدة لحملة مونتمار.

02- حول استعادة الإسبان لوهران عام 1732 وبعض القضايا التاريخية المتعلقة بالوجود الإسباني بإفريقيا[5]:

هذه رسالة بعث بها SANDOVAL إلى بربروجر يشكره فيها على تعاطفه مع إسبانيا وما كتبه حولها في المقال السابق تعقيبا على كتاب كلاريانا بأنها كانت تدافع عن الحضارة الأوربية، وأنها ظلت تكافح ثلاثة قرون بهذا البلد (ويعني الجزائر). كما استغل صاحب الرسالة الفرصة للحديث عن مستغانم ومزغران، ولفتَ عناية مراسله إلى كتاب هام طبع عام 1593 وهو للقبطان Baltasar Morales عنوانه « Dialogues des guerres d'Oran» ونبهه إلى أنه يحتوي على معلومات هامة عن الكونت دالكوديت والحوادث التي وقعت آنذاك.

كما تحدث صاحب الرسالة عن الكتاب التالي: Loverdo, Aperçu sur l'Etat d'Alger وأن صاحبه هو ابن حاكم وهران بين 1770 و 1774 الذي كانت تحت يده وثائق كثيرة وهامة ولذلك أراد أن يضيف إلى كتابه مجموعة منها، فيها إحصاءات ومسارات هامة نحو الداخل وأسماء القبائل والدواوير

التي كانت تدفع الضرائب في شكل حبوب، وطريقة توزيع الغنائم بعد الاعتداء على الجزائريين قبل 1708. وفيها أيضا قائمة بأسماء حكام وهران منذ 1505 إلى 1774.

ثم ينبه SANDOVAL مراسله بربروجر إلى بعض الأخطاء التي وقع فيها فاي صاحب الكتاب الذي أشاد به في معرض حديثه عن كتاب كلاريانا سابق الذكر (Histoire d'Oran) وكأنه يطعن في صحة اختياره للجيد من المؤلفات، ثم يذكره بواحدة من هذه الأخطاء وهي المتعلقة بعدم ذكر الماركيز داردالس Marquis d'Ardales ضمن قائمة حكام وهران رغم أنه حكمها بين 1603 – 1608. ويضيف بعد ذلك بأن هذا الماركيز "الشجاع" هو الذي قهر الداي كوسة مصطفى في إحدى غزواته لجهة مستغانم حيث هزمه في 27 أفريل 1606. ويأتي التعليق من إدارة المجلة الإفريقية بأن هذه المعطيات جديدة لم يأتِ بها أي مصدر قبل ذلك وأنها تثري التاريخ المحلي.

03- القنصلية الفرنسية بوهران بين 1732 و1754[6]:

هذا الموضوع هام جدا بالنسبة للذين يدرسون تطور العلاقات الدبلوماسية بين إسبانيا وفرنسا بوهران وللذين يهتمون بتجارة الإيالة في بايلك الغرب مع القوى الأوربية، فضلا عن صدام مصالح الدول الأوربية وتداخلها والتي كانت وهران مسرحا واسعا لها. حيث يمر الباحث عبر مرحلة ازدهار التبادل التجاري بين المغرب والأندلس وتنامي المبادلات بين القوى البحرية المتوسطية؛ بيزا Pise، جنوة، البندقية، مرسيليا وكاتالونيا ليصل إلى إقرار مبدئي بتراجع تجارة وهران عقب احتلالها من قبل الإسبان في 1509 حيث توقفت مبادلاتها مع تلمسان الزيانية ومع المناطق الداخلية التي صارت بيد الأتراك، ولم يستطع الإسبان توفير ضمانات للمتعاملين معهم، ولذلك اقتصر نشاطهم على استيراد المؤونة الضرورية.

وكان تعيين نائب قنصل فرنسي بوهران من قبل القنصل الفرنسي بأليكونت لأول مرة كنتيجة للتوافق الفرنسي الإسباني عام 1700 الناتج عن اعتلاء فيليب الخامس عرش الملوك الكاثوليكيين. وبعد تحرير وهران الأول فُتح المجال أمام

مفاوضات دولية حيث حصل الإنجليز – أعداء الإسبان – على حق المتاجرة مع وهران، فعمل القنصل الفرنسي بالجزائر Clairambault على الحصول على امتيازات مماثلة لكنه لم يحصل من الداي إلا على وعد "تسويفي"، ووجب انتظار الفرنسيين 11 عاما حتى 17 ديسمبر 1719 لتحصل فرنسا على حق تعيين نائب قنصل في وهران يتبع القنصل الفرنسي بمدينة الجزائر، ورغم هذا وجب الانتظار أيضا 11 عاما أخرى لتطبيق هذا الاتفاق.

وكان العائق الأكبر هو تدخل الإنجليز للحفاظ على امتيازاتهم بوهران إضافة إلى الغرفة التجارية بمرسيليا التي عملت على الاستحواذ على حق تسيير المؤسسات الفرنسية بالجزائر، والتاجر Bernard Michens الذي أقنع الداي بمنحه امتيازات تجارية بوهران ابتداء من 1723 وهو ما احتج عليه مجلس مرسيليا على اعتبار أنه مخالف لاتفاقية 1719 المذكورة أعلاه، متهما Michens بإعطاء وعود للداي بمنحه مبلغ 200 جنيه.

وبعد فشل هذا التاجر عُين Dominique Dedaux منذ 1730 نائب قنصل فرنسي بوهران، واستطاع خلال السنتين المواليتين إحراز نجاح في ربط علاقات مع البايلك ومع الأهالي، غير أنه تورط في تنبيه مونتمار الإسباني في 30 جوان 1732 (ليلة استعادة وهران) إلى أن الباي أخرج النساء والأطفال من المدينة بنية العودة للدفاع عنها، وكان هذا الاتصال مساعدا للإسبان، فلما سيطروا على المدينة ثمنوا فعله هذا وأبقوا على القنصلية الفرنسية بينما لم تكن للقوى الأوربية الأخرى قنصليات في وهران.

وفي 1752 عُوّض Dedaux - المستدعَى إلى كاتالونيا لشغل منصب القنصل بها - بالقنصل David لكن مدريد رفضت استقباله في وهران فعوّضه Pierre Prat، وفي ص 225 من المقال بيان لمهامه خاصة بعد تفويضه رسميا من قبل الملك بتاريخ 23 ديسمبر 1754.

ثم يعود المؤلف إلى Dedaux يتتبع حياته وتنقلاته وحركاته المشبوهة خاصة وقد تلقى منذ 1734 منحة سنوية من الملك الإسباني تقدرت بـ 100 Pistoles، وظل يتنقل بين وهران

وإسبانيا بحجة معالجة زوجته من آثار مناخ وهران ومعالجته هو أيضا حتى أن فترة 19 عاما التي قضاها في منصب القنصل غاب خلالها فترةً لا تقل عن 06 سنوات؟؟؟

ورغم انتقال الباحث من قنصل إلى آخر إلا أنه كان يعود بالحديث إلى الأول مهتما بقضايا شخصية أثرت على خط التمثيل الدبلوماسي ليصل من خلالها إلى استنتاج هام؛ إن مثول Dedaux عامي 1737 و1739 أمام محكمة عادية يدل على أن الوضع القانوني للقنصل الفرنسي لم يكن عاديا.

وفي إطار الحديث عن الوضع الدبلوماسي الفرنسي في وهران يعرّج الباحث على الكثافة السكانية الفرنسية بالمدينة مؤكدا على أن كثيرا من الفرنسيين دخلوها مع مونتمار، وهو ما جعل الداي يحتج لدى القنصل الفرنسي بمدينة الجزائر على الإعانات التي قدمها هؤلاء الفرنسيون (وعددهم ما بين 4000 و5000) للإسبان. ويحاول الكاتب التنبيه إلى أن هؤلاء كانوا سويسريين أو من والونيا جنوب بلجيكا الحالية (Des Wallons) لكنه لم ينفِ مشاركة بعضهم بصفتهم فرنسيين ولم

يدّعِ – في المقابل – تحوّل هذه المساعدة إلى اتفاق فرنسي إسباني.

ولا يُتم الباحث مقاله هذا حتى يحدثنا ضمن عدة صفحات عن:

- حالة التجارة الفرنسية بوهران ضمن هذا التمثيل الدبلوماسي
- توسع التبادل التجاري الفرنسي مع البحارة الجزائريين ومع الإنجليز وأثر ذلك على الموقف الإسباني الذي أحس بضياع مصالحه في باليك الغرب.

4– حكام وهران خلال الاحتلال الإسباني لها[7]:

يبدأ Cazenave موضوعه بالحديث عن احتلال المرسى الكبير في 13 سبتمبر 1505 وهو الذي سماه الإغريق Theon Limen بمعنى ميناء الآلهة وسماه الرومان Portus Divini أي الميناء الإلهي، ثم عن احتلال وهران في 1509 مشيرا إلى دور الكاردينال خيمينس في ذلك.

وقدم الكاتب مبرر اهتمامه بهذا الموضوع وهو احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر والتي تزامنت – حسبه – مع

تدوين تاريخ المستعمرة بعناية خاصة، فكانت مساهمته من خلال ضبط قائمة حكام وهران، ومن خلال دراسة طبيعة تسيير المدينة إداريا قبل ذلك.

وكان حاكم وهران يلقب بـ Capitaine Général des Royaumes de Tlemcen et de Ténès et Gouverneur des Places d'Oran et de Mers El Kebir وفي 1534 أضاف دالكوديت إلى لقبه عبارة القاضي الأكبر Grand Justicier فصار له حق قيادة الجيش والإشراف على العمليات العسكرية والقضاء والإدارة.

وفي القرن 18 صار للحاكم لقب شرفي؛ الحاكم العام le Commandant Général لكن مع حذف عبارة "تلمسان وتنس" ليأس الإسبان من السيطرة عليهما. ويعتمد Cazenave هنا على Diego Suarez الذي نقل إلينا بعض المراسلات الرسمية التي حملت هذه الألقاب وشروط تولي المسؤولية والأجور التي يتلقاها كل حاكم.

كان هؤلاء الحكام يتمتعون بسلطة تامة في وهران والمرسى الكبير حيث لا يقبلون وجود أي إداري معهم، ولا يقدمون تقريرا إلا إلى الملك الذي عينهم في المنصب، وكان لحاكم وهران 06 مساعدين من بينهم ممثل الملك وحاكم المرسى الكبير. وكان له الحق في التصرف مع حكام تلمسان (في الفترة الأولى من الاحتلال) ومع القياد وشيوخ الدواوير وزعماء القبائل والمدن، حيث يعطي الأمان لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء، ويحالف أو يحارب كما يشاء. ونجد في هذا المقال تفصيلا لطرق معاملة الإسبان للقبائل الجزائرية من حيث السلم والحرب والتجارة والضرائب التي كانوا مجبرين على دفعها، ويقدم الكاتب (ص 267) نموذجا لمعاهدة بين حاكم وهران Marquis de Floris y Avila مع شيخ قبيلة بالقطاع الوهراني.

ويعطينا Cazenave ابتداء من ص 284 نظرة إجمالية على الوثائق التي اعتمدها في ضبط قائمة حكام المرسى الكبير ووهران، مع إشارة خفيفة إلى وجود بعض "الهفوات" في بعضها، ثم يعمد إلى رسم هذه القائمة (من ص 289) بدءا بحكام المرسى وانتهاء إلى حكام وهران منذ 19 ماي 1509 حتى تحريرها الثاني.

فمنذ 26 فيفري 1791 أصبحت وهران تحت حكم Don Juan Courten الذي صار يبذل الجهد ليتجنب سقوط المدينة التي يحاصرها الباي محمد الكبير، بينما كان Floridablanca يفاوض الداي محمد بن عثمان باشا (الذي توفي في 12 جويلية 1791) ثم الداي حسن، وتوصل مع هذا الأخير إلى اتفاق 12 سبتمبر 1791 الذي وافق عليه الملك كارلوس الثالث في 09 ديسمبر 1791 بمدريد، ليرحل آخر حكام وهران باتجاه إسبانيا من المرسى الكبير يوم 29 فيفري 1792 على متن الباخرة Saint Joachim.

ثالثا: الإسبان في شمال إفريقيا:

1- وثائق جديدة حول تاريخ الاحتلال الإسباني في إفريقيا[8]:

العنوان يشمل الشمال الإفريقي لكن الدراسة تهتم باحتلال وهران من خلال وثائق جديدة تشمل الفترة ما بين 1506 و1574، وقد كانت مناسبتها مرتبطة بتكليف الضابط السابق Tiran عام 1841 بالقيام بأبحاث تاريخية وأدبية في الأرشيف الإسباني،

فطلب من وزير الحربية المارشال Duc de Dalmatie السماح له بالبحث في بعض القضايا التي تخص وزارة الحربية ومنها إدارة الجزائر. وقُبل طلب تيران وتكفلت إدارة الجزائر – كنتيجة لذلك – بجزء من هذه الأبحاث التاريخية شمل:

1- "سيطرة العرب" على إسبانيا حتى طردِهم منها. **2-** المؤسسات الإسبانية على الساحل الإفريقي. **3-** الأحداث التاريخية المتعلقة بحروب القرن 18

وقد سلمت وزارة الحربية الوثائق التي جمعها تيران – خاصة من أرشيفات سيمونكاس والمتعلقة بالحملات الإسبانية على إفريقيا – إلى إدارة الجزائر والمستعمرات. وفي 1868 تم العثور على هذا الجزء بالذات في مكتبة الحاكم العام المارشال Duc de Magenta فأعطى أمرا بترتيبها وترجمتها إلى الفرنسية.

تضم هذه المجموعة 20 ملفا يحتوي على 361 وثيقة إسبانية وبرتغالية وإيطالية، كلها جديدة باستثناء 12 أو 15. أما القضايا التي تضمنتها هذه المذكرات والتعليمات والرسائل الرسمية المترجمة فهي:

/**1**- احتلال وهران وعنابة (1506 – 1542) /**2**- احتلال بجاية (1510-1555) /**3**- حملة شارلكان على تونس (1535) /**4**- احتلال عنابة (1535-1540) /**5**- مفاوضات الكونت دالكوديت مع الشريف محمد 1555 /**6**- سيطرة الأتراك على حلق الوادي وحصن تونس (1574)

وبعد هذه التوطئة أبدى de la PRIMAUDAIE تواضعه بالإشارة إلى عدم رغبته في المبالغة في الحديث عن أهمية هذا العمل، غير أنه لم يُخفِ قناعته بضرورته مبينا أن دراسة هذه الوثائق ستسمح بتصحيح أخطاء كثيرة ومراجعة قِيمة بعض روايات المؤرخين وملء بعض الفراغات.

الموضوع طويل يشمل أحداثا تاريخية وتعليقات وتصويبات، وفي نهايته قائمة بحكام وهران والمرسى الكبير وترتيب زمني للأحداث حتى خارج الفترة المدروسة أي حتى 1708 وهي سنة تحرير وهران الأول.

ملاحظة: هناك اختلاف بين المؤرخين حول احتلال المرسى الكبير، وهو هنا في هذا المقال (13 سبتمبر 1505[9])

2- مناطق السيادة الإسبانية في إفريقيا[10]:

يتحدث الكاتب عن مناطق السيادة "Présides" التي ظلت للإسبان بداية القرن 18م بإفريقيا وهي خمسة، وهران والمرسى الكبير، مليلية، الحسيمة، حجر بادس (Penõn de Velez) وسبتة. ويعيب على هؤلاء بقاءهم في السواحل أو محاولة التقدم – في أحسن الأحوال – على حساب بعض القبائل للحصول على بعض المؤونة.

وما يهمنا في هذا المقام من البحث الذي بين أيدينا هو المرسى الكبير ووهران حيث تحدث الكاتب عنهما بحسرة كبيرة حين عرض مسألة الاكتفاء بهما وعدم المغامرة بالتوغل في المناطق الداخلية امتثالا للأوامر التي جاءت من إسبانيا. واصفا مناطق السيادة هذه بالمنفى أو السجن لأن كل أنواع التواصل مع القبائل المجاورة كانت ممنوعة على هؤلاء وإلا تعرضوا لعقوبات شديدة، وكنتيجة لذلك صار على الإسبان جلب المواد الغذائية خاصة القمح واللحم من إسبانيا بل الماء أحيانا. إضافة إلى ما كانت تسبب من تكاليف تتحملها الخزانة الملكية.

ورغم هذا احتفظت إسبانيا بهذه "القلاع" الخمسة بشمال إفريقيا، لأنها احتُلت "بذهب إسبانيا وبدماء أبنائها"، وكانت في ذات الوقت تمثل أمل الامتداد نحو المناطق الداخلية من إفريقيا، لذلك تم الاهتمام بتنظيم شؤون هذه المراكز الإسبانية، وقد التفت إليها وزراء الداخلية أمثال Joseph Patino فحصلت سبتة على قانونها الخاص عام 1715 بينما حصلت وهران على مثل ذلك عام 1745.

لقد أخذت هذه التشريعات الجديدة بعين الاعتبار التنظيم العسكري والاقتصادي والسياسي والديني لهذه المناطق، وصار كل واحد يعرف ما له وما عليه، في ظل تعايش جنود الحامية والمجرمين السجناء والمدنيين والعرب اللاجئين.

ثم عمد صاحب المقال إلى الحديث عن وهران واحتلالها عام 1509 من قبل خيميناس الذي قاد الحملة بنفسه بعد أن جمع لها من الأموال الكثير، وكان المرسى الكبير يومها بيد الإسبان منذ 1504م (الأصح هو 1505م)، وما قام به الكاردينال مثّل حربا "دينية مقدسة" وقد ذكّرَنا الكاتب بهذا من خلال اعتماده على كتاب يحمل دلالة خاصة تظهر من عنوانه: La Croisade de

Ximénès en Afrique لصاحبه N, Blum. ثم عرّج على تحريرها يوم 20 جانفي 1708م من قبل الباي بوشلاغم (Bigotillos) الذي حضّر للحملة بشكل جيد رغم أن العرش الملكي الإسباني بذل كل الجهود للحفاظ على المدينة. ولما تخلص الملك فيليب الخامس من بعض مشاكله في أوربا عزم على استعادة وهران وهو ما كان في 01 جويلية 1732 تحت قيادة الكونت مونتمار.

وحين تطرق الباحث لتحرير وهران الثاني عام 1791 لم يذكر جهود الباي محمد الكبير ولا الطلبة الذين حاصروا المدينة وحرروها وإنما عزا ذلك كله إلى زلزال 1790 الذي دمر ثلثي مساكنها وأجبر سكانها على مغادرتها فأقدم الملك شارل الثالث على تركها لداي الجزائر بمقتضى اتفاقية 1791.

ثم يعود الكاتب إلى محاولات تحرير وهران من قبل الباي بوشلاغم وبعض القبائل التي كانت تحاصر المدينة أحيانا، وقد مرت سنوات لم تكن محاولات التحرير خلالها تقل عن 05 أو 06، وكان ذلك كله يشكل ثقلا على المدينة ولو من حيث الذخيرة.

ففي 21 نوفمبر 1732 قُتل Le Marquis de Santa Cruz وبعض جنوده ولم يستعد الإسبان جثته.

ومنذ 1732 أصبحت وهران والمرسى الكبير محكومين من قبل ضابط في الجيش الملكي برتبة Lieutenant-Général أو Maréchal -de-camp يتقاضى 750 إيكو (Ecu) شهريا، ويساعده مجلس من 06 ضباط يُختارون لمدة عام واحد من بين مسؤولي الحاميات. بينما كان على رأس المرسى الكبير حاكم تابع لحاكم وهران. وقد مر عليهما 13 حاكما أبرزهم Valléjo (1733-1738) الذي عزز تحصينات المدينة، وAlvarado (1770-1774) الذي جعل مدينة وهران جميلة جدا بإدارته وكانت تضم عشرة آلاف نسمة.

وفي المقال تفصيل هام عن الحصون ومسؤوليها وتنظيم المدينة والموظفين الذين عُهِد إليهم بذلك، والمبالغ العامة التي كانت تصرف عليهم والتي بلغت سنويا 29760 إيكو. كما تحدث المؤلف عن دور الكنيسة في تعزيز احتلال وهران وتأثير رجال الدين على يومياتها، وذكر لنا على سبيل المثال Antonio Campoi y Morata الذي أنشأ مستشفى Saint-Bernardin

عام 1756 وكان يجوب المدينة لجمع التبرعات الضرورية لتسييره.

ويعود صاحب المقال إلى الحاكم العام لمدينة وهران فيحدثنا عنه بالتفصيل، فهو الذي يعينه الملك شخصيا لمدة غير محددة ولا يقدم تقاريره إلا إلى وزير الحربية، وله الحق في مراقبة الحاميات بناء على تكليفه من قبل الملك بالأمر الملكي المؤرخ في 15 أفريل 1758. وهو الذي يشرف على العمليات العسكرية وغزو القبائل العربية وله ربع الغنائم المحصّلة من ذلك كله. كما نقل إلينا CASENAVE أهم المشاكل التي عانى منها الحاكم العام، مشيرا إلى أهمية الاطلاع على المراسلات التي كانت بين وهران وإسبانيا للتعرف أكثر على طبيعة تسيير المدينة.

3- إسبان إفريقيا الشمالية من 1492 إلى 1577[11]:

ينبه الباحث منذ البداية إلى أن دراسته هذه لا تسعى إلى تفصيل الحديث عن هذه القضية تفصيلا تاما، بقدر ما تسعى إلى ترتيب المعطيات المتوفرة ضمن خطوط عريضة يقتضيها الهدف

المسطر. ويقدم في هامش الصفحة الأولى أهم الدراسات التي عاجت نفس الموضوع، ومنها:

- Sanchez Alanso : Fuentes de la historica de Espana.
- Ballester : Bibliographia de la historia de Espana
- Barrau Dihigo et Foulché Delbosa : Manuel de l'Hispanisant.
- Playfair : A bibliography of Algeria from the expedition Charles V in 1541 to 887.
- Tailliart : L'Algérie dans la littérature française, Essaie de bibliographie critique et raisonnée.

نلاحظ ابتداء على صاحب المقال أنه:

● لم يعتنِ بالكتابات المحلية (الجزائرية) ضمن البيبليوغرافيا التي اعتمدها في دراسته.

●يهوّن من ضخامة المشروع الإسباني بشمال إفريقيا حيث يعتبره مجرد تفصيل (un détail) في أعمال فرديناند الكاثوليكي وشارل

الخامس وفيليب الثاني، لكنه يعتبر حملاتهم على المنطقة "حربا صليبية إسبانية في إفريقيا" وهو ما يجعله في تناقض تام.

- ينتقد المصادر المعتمدة ويَعتبر كثيرا منها قد كُتب ليقدم تبريرات للحملة الإسبانية مهملا قضايا أهم تتعلق بالسياسة الإسبانية العامة. كما ينتقد اهتمام بعضها بالجانب العسكري كغزو القبائل القريبة من سبخة وهران وقيام المعارك على رمال جربة المتحركة. وضمن هذا النقد يذكر بعض أعمال دوغرامون وبربروجر ويعيب على الباحثين عدم اهتمامهم بالسلاح البحري الإسباني المستخدم ضمن هذه الحرب الصليبية.

- ويقسم الباحث دراسته للفترة التي حددها في العنوان (1492-1577) إلى 03 أقسام:

- من سقوط غرناطة عام 1492 إلى موت فرديناند الكاثوليكي عام 1516 وقد عالج دراستها من 03 زوايا: أهمية الماضي، تأثير المصالح الروحية (الدينية) ودور المصالح الدنيوية.

- من موت فرديناند عام 1516 إلى معاهدة Cateau-Cambresis التي عقدت في شمال فرنسا في 2 و3 أفريل 1559 بين فرنسا وإسبانيا والإمبراطورية الرومانية الجرمانية، والتي وضعت حدا للصراع بين هذه القوى، وتم العمل بها مدة قرن لتفتح المجال للتوسع الإسباني في أوربا وتنهي التدخل الفرنسي

في إيطاليا. وخلال هذه المرحلة لم تكثر الحملات الإسبانية على إفريقيا.

- من 1559 إلى 1577 حيث تركزت اهتمامات إسبانيا على المسائل الإفريقية الشمالية وصار لهذه الدولة حضور قوي على مستوى الحوض الغربي للمتوسط بينما صار حوضه الشرقي مجالا تتحكم فيه الدولة العثمانية إذا استثنينا نفوذ البندقية وفرسان مالطا. وقد أدت هذه المنافسة الثنائية إلى مجابهة بين الطرفين: في جربة عام 1560 – وفي مالطا عام 1565– وفي ليبانت عام 1571 – وفي تونس عامي 1573 و1574.

ويشير الباحث إلى الوضع المريح الذي عرفه المغرب بعد معركة وادي المخازن (Alcazar Kebir) عام 1578 معترفا أن إيالتي الجزائر وتونس عرفتا ثراء وتوسعا، ومعتبرا هذا بمثابة نهاية مرحلة استعداد شمال إفريقيا لدخول "العصر الحديث". كما يخلص إلى أن الحملات الإسبانية على شمال إفريقيا بين 1492 و1577 – على الأقل في خطوطها العريضة –لم تحقق سوى نتائج هزيلة، بينما كان الملك فيليب الثاني يعتبر نفسه سيد أوربا. ويذكّر الباحثُ بعبارة حاكم وهران Vallejo: "لقد قايضتْ إسبانيا أكواما من الذهب بجبال من الحجارة".

الموضوع هام يستحق القراءة للتعرف على طبيعة السياسة الإسبانية تجاه شمال إفريقيا خلال القرن 16م.

الهوامش:

1- GUIN, L, Quelques notes sur les entreprises des Espagnols, pendant la première occupation d'Oran, V 30, année 1886, pp 312-322.

[2] - هكذا ذكر (قلموس) وهو أبو حمو الثالث المعروف بابن قلمون أو بو قلمون الذي حكم خلال فترتين: الأولى من 1503م إلى 1517م، والثانية في 1518م وهي سنة وفاته. وبوقلمون كلمة معربة مشتقة من اللفظ اليوناني Kamlion أي الحرباء التي يُضرب بها المثل في تغيير لونها. وأبو قلمون نسيج معين له بريق خاص. ثم حجر كريم ثم طائر ثم حيوان رخو، وأبو قلمون في الثياب -عند الثعالبي- كأبي براقش في الطير، فإن أبا قلمون يتلون وأبا براقش يُتخيل. يراجَع كل من:

- المعجم العربي لأسماء الملابس، رجب عبد الجواد إبراهيم، دار الآفاق العربية، ط 1، 2002، ص 27

- الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط 2، 2007، ص 142

[3] – JACQUETON, G, L'expédition d'A. Martinez DE ANGULA contre Tlemcen: juin– juillet 1535, V 36, année 1892, pp 149–165

[4]– Don Antonio DE CLARIANA, Reprise d'Oran par les Espagnols, en 1732. V 08, année 1864, pp 12 – 28

[5] – SANDOVAL (Général de): Sur la reprise d'Oran en 1732, et sur quelques autres faits de l'histoire des espagnols en Afrique, V08, année 1864, pp 221 – 226

[6] – PESTEMALDJOGLOU (A), Le consulat français d'Oran de 1732 à 1754, Vol 86, Année 1942, pp 220-254

[7] – CASENAVE (J.) Les Gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville: (1509-1792). Vol 71, Année 1930, pp 257-299

[8] – PRIMAUDAIE (de la), Documents inédits sur l'histoire de l'occupation espagnole en Afrique, V 19, année 1875, pp 62 – 77 et pp 148 – 157 et pp 161 – 193 et pp 265 – 288 et pp 337 – 360et 483 – 496 / V 20, année 1876, pp 128 – 144 et pp 232 -244 et pp 320 – 335 et pp 387 – 416 / V 21, année 1877, pp 17 – 32 et pp 81 – 96 et pp 198 – 229 et pp 265 – 298 et pp 361 – 379 et 461 – 472

[9] – P 466, T 21, Année 1877

10 – CASENAVE, J, Les présides espagnols d'Afrique: (leur organisation au XVIIIè siècle) Vol 63, Année 1922, pp 225-269 et pp 457-488.

11 – BRAUDEL (F.) : Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577. Vol 69, Année 1928, pp 184-233 et pp 351-428

البيبليوغرافيا:

- الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق المهدي البوعبدلي، الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، ط 2، 2007
- المعجم العربي لأسماء الملابس، رجب عبد الجواد إبراهيم، دار الآفاق العربية، ط 1، 2002

- Revue Africaine

الموضوع الخامس

محطات في تاريخ وهران
والمرسى الكبير

ملخص البحث:

اهتمت المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر بشكل خاص، وكان حظ "الجزائر العثمانية" من هذه الدراسات وافرا، حيث تم الاعتناء بالتنظيم الإداري والشخصيات التي كان لها دور في تثبيت الحكم العثماني بالجزائر، والصراع العثماني الإسباني وموقف القبائل منه، إضافة إلى قضايا أخرى كثيرة متعلقة بهذه المرحلة من تاريخ الإيالة، كتاريخ وهران والمرسى الكبير ضمن هذه الحركية التاريخية التي أفرزت صبغة عسكرية ببايلك الغرب الجزائري.

ونظرا لأهمية هذه الدراسات التي حوتها المجلة الإفريقية حول وهران ارتأيت تتبعها لأقرّب القارئ منها وأنقل إليه صورة عامة عن تاريخ المدينة وميناء المرسى الكبير، دون إهمال الاهتمام بمنهج الفرنسيين في هذه الأعمال، والأخطاء التي وقعوا فيها بسبب التوجه الذي رسمته لهم المدرسة الاستعمارية.

تقديم:

وهران مدينة جزائرية ساحلية، تقع بين رأسين هامين؛ Cap Abuja شرقا وCap Falcon غربا، وهي عاصمة الغرب

الجزائري حاليا، وقد اختلفت الروايات في نشأتها على رأيين اثنين؛ رأي يرى أصحابه أنها قديمة تعود إلى أزمنة غابرة قد تصل إلى ما قبل التاريخ، ورأي يرى أنها أسست عام 290هـ/903م من قبل محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وأتباعهما من البحارة الأندلسيين.

وفي 1509 وقعت وهران بيد الإسبان بعد أن عجز الزيانيون عن حمايتها، وكان ميناء المرسى الكبير القريب منها غربا قد وقع في أيديهم قبل ذلك بأربع سنوات، ليستمر هذا الاحتلال حتى نهاية القرن 18م، وهو ما جعل المنطقة الغربية من إيالة الجزائر العثمانية تعيش حالة خاصة ميزتها صبغة عسكرية بالدرجة الأولى نتيجة الصراع العثماني الإسباني حول المنطقة والذي أفرز محاولات تحرير كثيرة للمدينة كللت بالنجاح عام 1708م ليعود الإسبان من جديد في 1732م ويظلوا بها وبالمرسى حتى عام 1792م حيث تم تحريرهما على يد الباي محمد بن عثمان الكبير.

ونظرا لأهمية المدينة اهتم الفرنسيون بتاريخها حيث ألفوا كتبا وكتبوا مقالات كثيرة نشروها عبر المنابر التي أنشأوها، ومنها المجلة الإفريقية التي حوت عشرات المقالات حول المدينة

والمرسى الكبير وقبائل المنطقة والاحتلال الإسباني وقادته، وعمليات التحرير ورجالاته خاصة الباي محمد بن عثمان، إضافة إلى الاهتمام بقضايا لها علاقة بوهران كحركة التأليف التي صحبت تحرير المدينة ودور طلبة العلم فيه.

ونظرا لأهمية هذه الدراسات التي حوتها المجلة الإفريقية ارتأيت تتبعها لأقرّب القارئ منها وأنقل إليه من خلالها صورة عامة عن تاريخ مدينة وهران وميناء المرسى الكبير، على أنني لم أقم بترجمة كاملة لهذه الأعمال وإنما اكتفيت بتتبع خطوطها العريضة عبر تحليل مضامينها وبيان مناهجها والوقوف على أبرز الهفوات الواردة فيها. كما ارتأيت معالجة كل موضوع على حدة وأدرجت رقم جزئه والصفحات التي ورد ضمنها مباشرة في العنوان عوض إدراجها في الهوامش وذلك بهدف التسهيل على القارئ، علما أن بعض المواضيع لم تأتِ ضمن جزء واحد فقط من المجلة الإفريقية وإنما ضمن أجزاء مختلفة كالموضوع الثامن مثلا.

العرض:

01 - A. BODIN : L’agrément du lecteur ; Notice historique sur les Arabes soumis aux Espagnols pendant leur occupation d’Oran, par Si Abd-el-Kader el Mecherfi. V 65, année 1924, pp 193-260

هذه ترجمة لكتاب "بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين من الأعراب كبني عامر" يعرضها علينا BODIN. ويقدم لهذا العمل بالحديث عن الفرق بين جهود الإسبان في وهران ومثيلاتها بالمغرب الأقصى في مليلية مثلا حيث كانت نشطة في الأولى دون الثانية مقدما مبرراتٍ لذلك من بينها أن المدينة المغربية محاطة بجبال تسكنها قبائل قوية ولم يكن من الحكمة أن تقوم الحاميات الإسبانية بإزعاجها خوفا من رد فعلها.

ولم تكن إسبانيا لتفكر أبدا في توسيع نقاط سيطرتها في شمال المغرب، بل فكر مسؤولوها – على عكس هذا تماما – في إخلاء مناطق نفوذها هذه مرتين في 1764 وفي 1772 بناء على ما أسماه الكاتب "قيمة السكان السياسية"، ذلك أنهم رأوا في الشعب

المغربي شعبا حقودا غير قابل للآخر؛ أي الأجنبي الكافر، خصوصا وأن هذا الشعب ذو حضارة ضاربة في القدم وله ثقافة مختلفة تماما عن ثقافة الإسبان.

ومن بين الحجج التي يسوقها الكاتب بخصوص مليلية دائما قضية العلاقات الحسنة التي عمل الملك الإسباني كارلوس الثالث (1759-1788) والسلطان المغربي سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) على المحافظة عليها باعتبار وجود عدو مشترك هو إنجلترا، ولذلك طالت فترة السلم - باستثناء محاولة المغرب الهجوم على مليلية عام 1775 - مثلما طالت فترة حكم هذين الملكين.

وعلى عكس هذا تماما كان إسبان وهران يسيطرون على سهلي مليتة وسيرات، وهو ما جعل القبائل تهادن المدينة لتستفيد من المراعي الهامة الموجودة بالسهلين، وكانت هذه المهادنة محفزا لعبد القادر المشرفي ليؤلف فيهم كتابه المذكور سابقا، وهو يوفر للقارئ - حسب الباحث - فرصة التعرف على هذه القبائل بأسمائها. غير أن صاحب المقال شكك في بعض هذه الأسماء بناء على ما أورده Gorguos بالمجلة الإفريقية (Vol 5, p119) اعتمادا على Clariana.

ولا يقدم الباحث ترجمة وافية للمشرفي وإنما يكتفي – اعتمادا على تلميذه أبي راس الناصر – بذكر حضوره حادثة استعادة مدينة وهران من قبل الإسبان عام 1732 مضيفا أن تأليف الكتاب كان سنة 1764. وابتداء من الصفحة 197 ينشر BODIN كتاب المشرفي حتى الصفحة 220 ليبدأ بعدها عملية الترجمة والتي تستمر حتى الصفحة 261 مع إدراج بعض التعليق والتوضيح في الهوامش.

02 – Berbrugger, Conquête d'Oran, V 10, année 1866, pp 43-50

يناقش بربروجر هنا قضية حضور الجوسسة في احتلال وهران عام 1509 متسائلا: هل كان للإسبان استخبارات في وهران قبل احتلالها؟ يقول مارمول وسواريز: نعم. بينما ينفي Cayetano Rosell ذلك غير مدعم قولَه بأدلة حسب ما نقل عنه Fey الفرنسي، إلا أن يكون هذا الأخير هو المقصر في نقلها. والجوسسة مسألة معتادة ذلك الزمان!!!

ومما نقله بربروجر عن سواريز أن اثنين من "بورجوازيي" وهران ساهما في المفاوضات والاستخبارات بهدف إلحاق المدينة

بالتاج الإسباني وذلك بواسطة "الاجتهاد الحسن" الذي قام به السجين Martin de Argote والماركيز De Gomarès الذي كان طليقا بالمرسى.

وكان من بين الأسرى في وهران Don Martin و Luys وبينهما وبين حاكم المرسى الكبير علاقة قرابة فاشتراهما قايد وهران وقائدا بابيها (وكانا مسؤولين عن الجمارك) بنية بيعهما وتحيق الربح. وخوفا من فرار السجينين احتفظوا بهما في بيوتهم قرب مكتب الجمارك ليس بعيدا عن المسجد.

نشأت علاقة بين القائدين (المسؤولين عن الجمارك) والسجينين من خلال المواد التي كان الأخيران يوفرانها لهما من إسبانيا بواسطة بعض التجار، فعمد **دون مارتن** إلى الحديث إليهما عن التاج الإسباني وكيف يمتد سلطانه إلى أماكن تشرق فيها الشمس حين يغزو الظلام شبه الجزيرة الإيبيرية، وعن رغبة الملك في السيطرة على فاس وتلمسان وتونس وغيرها لتعميرها بالمسيحيين. وهذا ما اعتبره سواريز نوعا من "المفاوضات".

يتدخل بربروجر ليدافع عن سواريز ويقلل من قيمة "الفجوة" التي تركها حين لم يعطِ تفصيلا أكبر، ويعذره خصوصا وقد

بحث عن المعلومات عند أطفال صانعي الأحداث وعند أحفادهم، وفي أرشيف وهران العام والخاص.

ثم يقارن بربروجر كلام سواريز وكلام مارمول، ويبين أخطاء الثاني المتعلقة ببعض الأحداث. لينقل بعد ذلك رواية مارمول المتعلقة بالاستخبارات والجوسسة مشيرا إلى محادثات الإسبان بالمرسى الكبير مع اليهودي سطورا والجزائريين عيسى العُريبي وابن قانص بوهران لتسليمها. ويعطي تفصيلا دقيقا لهذه الخيانة العظمى.

03- Berbrugger, Négociations entre Hassan Aga et le comte d'Alcaudete, gouverneur d'Oran (1541-1542). V 09, année 1865, pp 379-385

يطرح بربروجر هنا إشكالية خطيرة جدا متعلقة بسياسة حسن آغا تجاه التحرشات الإسبانية، فيورد منذ البداية رأيين متناقضين أصل أولهما الكتابات المحلية التي تقول إنه رفض مناقشة أي اتفاق مع شارل الخامس من باب إهانته، وأصل ثانيهما المؤلفات الإسبانية التي تذكر أن حسن آغا خضع لرغبة التعاون مع

شارلكان – من خلال ممثله دالكوديت – لولا الضغوط التي تعرض إليها من السكان والتي هددت حياته شخصيا.

ويدعي بربروجر أنه جاء في المقال بأدلة ترجح ما ذهب إليه الإسبان، ويعتمد على مارمول الذي اشتغل 06 سنوات في "إفريقيا" وشهد حصار مدينة الجزائر في 1541، ويعتبر رأيه في المسألة "**محترما**". ويورد عنه أن ما ثنى حسن آغا (المسمى عندهم Acenaga) عن تسليم مدينة الجزائر هو أن القايد محمد – وهو أحد اليهود الذين دخلوا الإسلام – ذهب إليه مع مجموعة من الأعلاج والأتراك ومنعوه من ذلك واعتبروه مهانة وخزيا، وذكّروه بكل ما بذلوه من أجل هذه الأرض.

ويرى صاحب المقال في نهايته – كخلاصة – أنه بعدما أورد الرسائل الثلاث التي اعتمدها في تحليل المسألة لم يعد الأمر يقبل نفي هذه المفاوضات التي جرت حسبه خلال 1540 – 1541 – 1542. غير أنه فتح قوسا في النهاية تريث من خلاله في الحكم على نية حسن آغا من وراء هذه المفاوضات حيث تساءل عن جديته أصلا وهو يفاوض، كما لم يُقصِ فرضية مجاراته لشارلكان اقتداءً "بمعلمه" خير الدين بربروس.

04 – L. FERAUD, Lettres Arabes de l'époque de l'occupation Espagnole en Algérie, V 17, année 1873, pp 313 – 321

يبدأ فيرو بالإشارة إلى ما جمعه Elie de la Primaudaie من وثائق رسمية إسبانية من المكتبة الملكية بسيمونكاس متمنيا أن ترى النورَ هذه الأعمالُ التي من شأنها إضاءة تاريخ الاحتلال الإسباني للمنطقة. وفي انتظار نشر هذه الوثائق طلب de la Primaudaie من فيرو أن يعرّف قراء المجلة الإفريقية ببعض الرسائل العربية بعد ترجمتها.

الرسالة الأولى من مستغانم إلى خيمينس بعد مقتل سالم التومي على يد عروج بربروس الذي لم يتمتع طويلا بحكم مدينة الجزائر وقتل على يد Alferez Garcia Fernandez de Plaza الذي كرّمه شارل الخامس.

الرسالة الثانية من بعض الجزائريين إلى شارلكان تحمل عبارات الوفاء له. أما الرسالتان الأخيرتان فوُجهتا سنة 1535 إلى حاكم وهران Don Martin de Ordoue وهو على الأرجح واحد من أبناء دالكوديت.

فهم محتوى الرسائل سهل جدا لأنها متوفرة في المقال باللغتين العربية والفرنسية، وهي تعج بعبارات الولاء والخضوع والتبعية والاعتذار وفيها ذكر لأسماء شخصيات وأسر دينية معروفة مستعدة لخدمة الإسبان مقابل الحفاظ على امتيازاتها والحصول على مقابل مادي. وفي الرسائل أيضا إشاراتٌ إلى الردود التي تلقاها أصحابها من الإسبان وذكرٌ لبعض الذين حملوا هذه الردود مثل Timiz، وفي الهوامش تعليقات تزيد الموضوع وضوحا.

05 – LA VÉRONE (Mlle Ch. de), Deux lettres inédites d'un roi de Tlemcen (1531-1532), Vol 99, Année 1955, pp 174-180

تشير الباحثة ابتداء إلى عثور المكتبة العامة وأرشيفات الحماية الفرنسية بالمغرب على مجموعة من الوثائق بباريس عند السيد Roux-Devillas، أصلها من إسبانيا وأقدمُها رسالتان من سلطان تلمسان الزياني مولاي عبد الله بعث بهما سنتي 1531 و1532 إلى إيزابيل إمبراطورة البرتغال والتي كانت تحكم إسبانيا في غياب شارلكان المتواجد حينها بألمانيا. ثم تعرج الكاتبة على علاقة تلمسان بإسبانيا حيث كانت على عهد أبي حمو الثالث – المتوفى عام 1528 – علاقة تحالف، غير أن سياسة خليفته

مولاي عبد الله انتابها كثير من اللبس بسبب وجود طرفين في المعادلة وهما الأتراك والإسبان.

كان حاكم وهران هو Don Luis Fernandez de Gordoba، وفي 1531 رحل إلى إسبانيا مستخلفا Don Pedro Godoy الذي كُلف هو وموظف ساحة وهران الدكتور Lebrija بإدارة المفاوضات مع ملك تلمسان عن طريق ممثله بن يزار Beniazar في جانفي 1530. غير أن السلطان آثر في 1531 التحالف مع الأتراك وهو ما وتر العلاقة بينه وبين ابنه مولاي محمد الذي حاصر والده بتلمسان وبعث إلى الإسبان يطلب مساعدتهم.

غير أن حاكم وهران Pedro Godoy والدكتور Lebrija نصحا الحكومة الإسبانية بمساندة مولاي محمد دون إنهاء العلاقات مع مولاي عبد الله لقطع الطريق أمام الحضور التركي على الساحة الزيانية، ولهذا جاءت الرسالتان – محور هذه الدراسة – من مولاي عبد الله إلى القيادة الإسبانية العليا لاستعادة التحالف معها.

كانت الأولى في 08 سبتمبر 1531 تبعا لمحادثات مع Lebrija في بداية الشهر نفسه، وإذا جاز اعتماد الرسالة الثانية – حسب الباحثة – أمكننا اعتبار مولاي عبد الله حليفا رسميا أو سريا للإسبان، وكان طبيعيا أن يساندوه بعد أن توجه ابنه مولاي محمد – الذي لم يحصل منهم إلا على وعود – إلى الجزائر. وبعدما توفي عبد الله عام 1533 دخل ابنه تلمسان بمساندة الأتراك.

بعد هذا التقديم أوردت الباحثة نص الرسالتين باللغة الإسبانية ومهدت لكل منهما بملخص يأتي بعده مباشرة تاريخ الرسالة، وهو ما آثرنا نقله هنا للتعرف على مضمونهما باختصار.

الرسالة الأولى مؤرخة – كما ذكرنا أعلاه – بـ 08 سبتمبر 1531 وهي من مولاي عبد الله، بعث بها من تلمسان إلى الإمبراطورة يعلمها من خلالها برغبته التامة في احترام شروط السلم المتفق عليها. وكانت هذه الرسالة إجابة عن أخرى بعثت بها إليه الإمبراطورة طمأنة له وتأكيدا على صداقتها.

وكان مولاي عبد الله قد كتب سابقا إلى الإمبراطورة بذات الخصوص غير أن الرسالة وقعت بيد بربروس الذي – ربما –

حاول شن حرب على تلمسان، وهو ما أخر رد مولاي عبد الله الذي قرر التفاوض بشكل نهائي مع الإسبان فبعث خادمه اليهودي Jacob Alegre لإتمام المهمة راجيا الإبقاء بوهران على الموظف الملكي الذي كانت تربطه به علاقات طيبة.

الرسالة الثانية مؤرخة بـ 03 جويلية 1532، لكن الباحثة تقع في خلط حيث ذكرت في بداية المقال أن الرسالتين كلتيهما بعثتا إلى الإمبراطورة إيزابيل، بينما ذكرت هنا أن الرسالة الثانية بعث بها مولاي عبد الله إلى شارلكان عن طريق خادم الإمبراطور Luis Fernandez de Gordoba.

وكان مولاي عبد الله قد بعث قبل فترة وجيزة عبر خادمه Jacob Alegre إلى شارلكان يطلب منه عقد صلح معه مقابل دفع ضريبة، غير أن شارلكان لم يجبه لسبب ما فجاءت هذه الرسالة لطلب السلم بنفس الشروط السابقة ونفس الضريبة المدفوعة سابقا دون اعتبار للأخطاء التي وقعت لأنه لم يستطع تجنبها، وحتى شارلكان كان له فيها نصيب من المسؤولية.

– كما يرجو السلطان الإمبراطور أن يعتبره تابعا له ومحميا من قبله، مؤكدا له أن هذا لن يضر الإمبراطور في شيء، وأن بإمكانه التأكد من مسؤولي وهران الإسبان.

– استغل عبد الله فرصة الرسالة ليؤكد لشارلكان أنه حان الوقت للقضاء على خير الدين، فلينظر الإمبراطور في شأن هذا المشروع.

– يرجو السلطان الإمبراطور أن يرفع عدد جنود الحامية بوهران بـ 500 مسلح قابلين لمساندته مقابل دفع أجرتهم ابتداء من اليوم الذي يغادرون فيه وهران وحتى عودتهم إليها.

– وإذا قرر الإمبراطور بعث حملة ضد الجزائر فعليه فعل ذلك بسرعة لأن مولاي عبد الله سيوفر مؤونة الجيش البري ويقدم إلى الإسبان رهائن من بين أعيان مملكته.

06 – LESPES (R.), Oran, ville et port avant l'occupation française (1831), Vol 75, Année 1934, pp 277-335.

يستهل الباحث عمله هذا بمقارنة بين مدينتي الجزائر ووهران، فالأولى لم يقل عدد سكانها منذ القرن 16 وحتى القرن 17 (؟) عن 100 ألف نسمة، بينما لم يزد مثيله في وهران – المدينة

الصغيرة – عن 20 ألفا. ولم يتم اعتبارها مدينة كبيرة إلا في الفترة المعاصرة، فأول إحصاء أبان عن تجاوز عدد سكانها 100 ألف نسمة كان عام 1906. ثم يقلل من مكانة وهران قبل 1831 (تاريخ خضوعها للاحتلال الفرنسي) خاصة قبل احتلالها من قبل الإسبان، فهي – على حد تعبيره – لم تكن تستحق فعلا تسمية "ميناء".

يتحدث الكاتب عن وهران وتأسيسها سنة 903م وأهدافه، وعن القبائل التي كانت تسكنها معترفا أن المادة المتعلقة بتاريخ المدينة من ق 10 حتى ق 16 قليلة لا تفي بغرض الدراسة. ورغم حديثه عن أهمية المدينة بالنسبة لتلمسان كميناء يفتح على أوربا للتزود بكثير من المواد منها فإنه يقلل من شأن وهران ثانية مبررا ذلك بدور رشقون وهنين في مزاحمتها، مؤكدا على أن وهران تركت مكانها تدريجيا للمرسى الكبير الذي يوفر حمايةً بجباله وماءً بِواديه ومخبأً للسفن يقيها مشاكل الرياح الغربية والشمالية الغربية.

ويعالج صاحب المقال قضية الكثافة السكانية بوهران معتبرا الهجرة الأندلسية سببا في زيادتها، سواء اليهودية أو الإسلامية، مذكرا ببعض الأسماء اليهودية كالحاخام سيمون بن سماح دوران وعمران إيفراتي الذي حارب كثيرا من العادات التي جلبها اليهود المحليون من المسلمين.

ويعود الكاتب إلى الفترة الوسيطية حيث كان التجاذب قويا على مستوى البحر المتوسط وقد كثرت الأطراف المتنازعة، غير أن سياسة المرابطين والموحدين شجعت على قيام علاقات سلمية فصارت التجارة بين الضفتين تنتعش وصار لوهران نصيبها ضمن هذه الحركية التجارية. كما يعرج الكاتب على تنامي مكانة ميناء وهران في العهد الزياني حين صارت القوافل التجارية تحط رحالها به.

ولا يخفي LESPES موقفه المؤيد لاحتلال الإسبان لوهران وفرحته بقهر بحارتها الذين حوّلوا المرسى الكبير إلى "عش للقرصنة" يرهب سكان السواحل. ويذكّر بجهود إيزابيلا الكاثوليكية وخيمينس لغزو مملكة تلمسان، ثم باحتلال وهران وأهم الأحداث التي تلت ذلك حتى إخضاع الأتراك لتونس عام 1574 حيث لم يبق للإسبان على الساحل المتوسطي سوى وهران والمرسى الكبير ومليلية.

ويذكرنا الكاتب بأهم محاولات تحرير وهران من الاحتلال الإسباني ويجعلها سبعة:

- حصار المرسى الكبير من قبل حسن باشا عام 1563
- مهاجمة الأتراك لوهران في 1604
- الحصار البري والبحري لوهران عام 1639

- حصار المرسى الكبير في 1675
- محاولة مولاي إسماعيل تحرير وهران عام 1973
- حصار وهران والمرسى الكبير من قبل باي معسكر مصطفى بوشلاغم وأتراك الجزائر منذ 1705 وسقوط وهران في أيديهم في 1707 واستسلام المرسى في 1708 (ص 298)

ثم يعود الباحث إلى الكثافة السكانية بوهران يتتبعها منذ بداية القرن 16، ثم يتحدث عن حصون المدينة وأبوابها وحالة شوارعها ومنازلها معتمدا على تقارير حكامها وشهادات الكتاب، إضافة إلى حديثه عن التحولات التي عرفتها المدينة عند تحريرها عام 1792 خصوصا تلك التي مست القبائل الحليفة للإسبان.

كما طرق المؤلف – على عادة كثير من الفرنسيين – مسألة تخلي الإسبان عن وهران نظرا للحالة التي آلت إليها معرجا على فشل حملة أوريلي سنة 1775 وعلى مفاوضات الملك شارل الثالث مع الداي محمد بن عثمان باشا التي أوصلت إلى اتفاقية 1780 التي عالجت – في بعض بنودها – قضية إخلاء وهران مقابل الحفاظ على امتيازات التجارة الإسبانية وتوقف القرصنة.

هذا ولم يغفل الكاتب عن الحديث عن زلزال 08- 09 أكتوبر 1790 الذي دمر المدينة حيث بقي 2000 شخص تحت الأنقاض، وعن حركة التعمير التي عمد إليها الباي الكبير بعد

استلام المدينة، ثم عن الحركة التجارية التي عرفتها وهران مع أطراف أوربية مختلفة ودور اليهود في هذا، ليعطينا أخيرا صورة قاتمة للمدينة حين استلمها الفرنسيون عام 1831 وكيف كان عليهم أن يعيدوا بناءها من جديد؟؟؟

07- CASENAVE. J. Contribution à l'histoire du Vieil Oran: Mémoire sur l'état et la valeur des places d'Oran et de Mers-el-Kebir, Vol 66, Année 1925, pp323-368

هذه مذكراتٌ كتبها Don José Vallejo في الأيام الأولى لعام 1734م مباشرة بعد توليه حكم وهران والمرسى الكبير نهاية 1733م، وهو ثالث حكامها بعد استعادتها عام 1732. وقد قام CASENAVE بترجمتها إلى الفرنسية بعد أن قدم لها ببعض المعطيات الرئيسية حول المدينة وكيف خضعت للإسبان في 1509 معرجا على تحريرها الأول من قبل الباي بوشلاغم عام 1708 واستعادتها من قبل الإسبان في 01 جويلية 1732 ثم تحريرها الثاني على يد الباي محمد بن عثمان الكبير عام 1792.

وقبل عرض التقرير ذكّر المترجم بموقف البايلك وقبائله من سيطرة الاسبان على المدينة عام 1732 والمتمثل في محاولة

استعادتها، وكيف أن هذه القبائل استقرت على أطرافها على أمل النجاح في دخولها مجددا، وقد ضاق مركيز وهران Santa Cruz بهذا ضرعا فقرر الخروج بحامية فيها 100 جندي وفرق الجزائريين وراح يطاردهم لكنه اصطدم بعد ذلك بجيش كبير فمات من حاميته الكثير وفرت البقية. فبعد مطاردة جادة تمت إصابة الماركيز و30 من جنده وألقي القبض على الماركيز De Valdecanas والكولونيل Joseph Pinel وكادت المدينة تُستعاد لولا وصول كتيبتي Ultonia وAragon اللتين الموقف الإسباني.

وفي 10 جوان 1733 فقد الماركيز Villadarias 800 جندي فعزلته إسبانيا رغم الجهود التي بذلها في تحصين المدينة، وعينت مكانه Don Vallejo الذي ظل في المنصب حتى 1738، وقد عُرف باهتمامه بتحصين المدينة مستعينا بثلاثة مهندسين؛ Don Diego Bordik – Don Jean Ballester Zafra – حيث أقام حصنين جديدين هما: Saint Ferdinand وSaint Charles وأتم حصونا سابقة هي: Saint Philippe وSanta Cruz وSaint Jacques وأدخل تعديلات على الحصون التالية: Sainte Barbe وPierre Saint و Saint Ignace وأعاد بناء كنيسة القصبة Chapelle de l'Alcazaba.

ومن إنجازات حاكم وهران Don Vallejo إنشاؤه لكتيبة نظامية من الجزائريين الذين يسكنون المدينة، وقد وافقت وزارة الحربية الإسبانية على هذا الإجراء في 10 ماي 1734 وأصدرت قانونا خاصا بهذه القوات التابعة للإسبان. وفي 1738 استدعت إسبانيا هذا الحاكم ليشغل منصبا عاليا في الجيش الملكي وعوضته بـ Don Joseph Basile Aramburu.

وفي نهاية التقرير الذي كتبه Don Vallejo يصل إلى نتيجة صدمت كثيرا من الإسبان مفادها ضرورة التخلي عن وهران والمرسى الكبير، معطيا الأدلة على أن دولته لا تستفيد من احتلالها لهما لا ماديا ولا أخلاقيا، وإنما تصرف أموالا طائلة بغير فائدة، وهو ما يفسر لهجته المتشائمة التي حملتها عبارته الأخيرة في التقرير: "**لا يمكننا إلا أن نقول بأن إسبانيا قايضت أكواما من الذهب بجبال من الحجارة، ولا يمكنها أبدا أن تستفيد من هذه الممتلكات، لا لشرفها ولا لتجارتها ولا لنشر الديانة الكاثوليكية**".

أما التقرير فقد قسم على الشكل التالي:

القسم الأول:

- وصف المرسى الكبير ووهران
- وصف الحصون
- وصف العين (منبع الماء) والحدائق

- وصف الميناء

القسم الثاني:

- تأملات في احتلال وهران ووضعيتها
- ماذا يكلف الاحتفاظ بها

القسم الثالث: القبائل الجزائرية الرئيسية في مملكة تلمسان

القسم الرابع:

- سياسة حكام وهران تجاه الجزائريين
- الضرائب
- الغزوات
- توزيع الغنائم

الخاتمة.

ورغم أن هذا التقرير لم تأخذ به السلطة الإسبانية ولم تترك وهران والمرسى الكبير فإنه يمثل للباحث مادة هامة يستفيد منها في التعرف على وهران وأبراجها وسكانها والمرافق العمومية فيها، وعلى القبائل المحيطة بها، وعلاقة الإسبان بهم وغيرها من المسائل الهامة. لكن يجب التعامل بحذر مع فكرة CASENAVE القائلة بأن الملك كارلوس الثالث قرر ترك المدينة عام 1792 بعد

أن دمرها زلزال 1790 لأن في ذلك مجانبة كبيرة للحقيقة التي روتها المصادر المحلية التي تحدثت عن صراع قوي بين محمد الكبير باي معسكر وبين الإسبان وحصار ساهم فيه حفظة القرآن الكريم والقبائل، وهو ما انتهى بقبول الإسبان بتسليم المدينة.

08- Berbrugger, Mers el-Kebir de 1509 à 1608, d'après Diego Suarez de Montanes, V 10, année 1866, pp 111 – 128 / pp 197 – 207 / V 11, année 1867, pp 72 – 81

يَعتبر بربروجر عمله هذا تحليلا لكتاب سواريز لا ترجمة له، ويقول إنه لا يجب اعتبار هذا الكتاب تاريخا بمعنى الكلمة وإنما تقييدات لكنها هامة جدا. وقسم هذا العمل إلى 04 محاور:

1- الترجمة الذاتية لسواريز، وقد سبق لبربروجر أن نشر هذا المحور في "الأخبار" في أوت وسبتمبر 1864.

2- الغزوات التي كان يشنها الإسبان على القبائل التي تعيش في محيط وهران، وأول هذا المحور أيضا منشور في الأخبار في 30 أوت و11 سبتمبر 1864.

3- السياسة الإسبانية في وهران.

4- خليط وإضافات.

يقول صاحب الدراسة إن تاريخ الوجود الإسباني بوهران لا تُعرف منه إلا المحطات الرئيسية المتعلقة بالاحتلال الأول 1509 والتحرير الأول 1708 والاحتلال الثاني 1732 والتحرير الأخير 1791. لكن هناك قضايا غير معروفة ومنها: كيف كان عمل الإسبان خارج مدينة وهران من وجهة نظر ثلاثية: الحرب، السياسة، التجارة؟ ويضيف أنه لم يكن في الاستطاعة الإجابة على هذه الأسئلة لولا ظهور مخطوط سواريز الذي سيمكن من إرضاء القارئ.

ثم يبدأ في عرض حياة سواريز ونكتفي هنا بالإشارة إلى تاريخ ميلاده (01 ماي 1552) وأنه ولد من أبوين نبيلين خدمهما حتى 1574 لكن معاملة أحد إخوته السيئة له جعلته يترك منزل العائلة، وأنه وصل إلى وهران في 1577 ليقدم بها خدمة لمدة 27 عاما.

يحمل الكتاب بعض الاختلافات مع فاي في "تاريخ وهران" حيث ذكر الأول مثلا أن الملك فيليب الثاني عمل منذ 1574 على تحصين مدينة وهران وبعث من أجل ذلك مهندسه الكبير الأمير Vespasien de Gonzague بينما اعتبر فاي هذه الشخصية من حكام وهران.

يحدثنا سواريز بالتفصيل عن الغزو الذي كان يمارسه الإسبان في بايلك الغرب عموما وعلى القبائل المحاذية للمدينة خصوصا، وهو مستاء من أداء الجنود الذين ينتمون إلى جيل لاحق لجيله، حيث يساعد الجزائريين – بتصرفاته الطائشة – على الفرار والتخلص من عواقب الغزو. كما يتحدث عن "الخيانة" التي كان يمارسها بعض الجزائريين ويصفهم وهم ينقلون الأخبار ويدلّون الإسبان على الدوار المقصود، مبيّنا الدوافع التي جعلتهم يقومون بذلك ومنها الحقد على شيخ القبيلة.

ويبدو أن بربروجر – رغم الجهد الذي بذله في تعريفنا بهذا الإنتاج الهام لسواريز – لم يفوّت الفرصة لتبرير الهجمة الاستعمارية الفرنسية على الجزائر، حيث يقارنها في ص 201 مع الاستعمار الإنجليزي في إفريقيا ويعتبر أن الرأي العام الأوربي حاكَم إيالة الجزائر على ما قامت به في البحر المتوسط، وأن هذه المحاكمة فوّضت الفرنسيين للانتقام منها.

09- PESTEMALDJOGLOU (A), Mers-el-Kébir, Historique et description de la forteresse, Vol 84, Année 1940, pp 154-185.

يبدأ الباحث بجغرافيا المرسى الكبير فيحدد امتداداته وحدوده متحدثا عن شبه الجزيرة التي فيه (900م×200م) وعن الخليج الصغير، ومبينا أهمية المرسى بالنسبة لوهران، فالأندلسيون اختاروا هذه المنطقة لأنه ناسب نشاطهم التجاري ثم التفتوا شرقا فوجدوا الطبيعة ملائمة لبناء المدينة فكانت وهران. ثم يسوق الكاتب كلام المؤرخين الأوائل حول ميناء المرسى الكبير كابن حوقل والبكري والإدريسي وأبي الفداء مذكرا أن الاسم غاب من كتابات ابن خلدون رغم حضور وهران فيها في خضم حديثه عن أحداث بلاد المغرب.

في 1501 حاول البرتغاليون – في إطار نجدة البنادقة ضد الأتراك – السيطرة على وهران والمرسى الكبير لكن المقاومة كانت فعالة وأسفرت عن هزيمة برتغالية كانت نتيجتها ألفًا بين قتيل واسير. ويقف الباحث عند اتفاقية طورديزيلاس التي حددت

مجال نفوذ إسبانيا والبرتغال ويجعلها خطأً في1497 بينما كانت في 07 جوان 1494.

وفي إطار الحديث عن تاريخ المرسى يقف الباحث عند سنة 1504 حيث حاول الإسبان دخول الميناء والسيطرة عليه ولكن المحاولة فشلت وقُتل قائد المرسى بتهمة التآمر مع العدو، وفي 13 سبتمبر 1505 يقع المرسى بأيديهم ويُسمح للجزائريين بالمغادرة شريطة ترك المدافع والبارود، ويتم تحويل المسجد إلى كنيسة القديسة مريم على خلاف اسمها الشائع في الكتابات التاريخية (كنيسة القديس ميقيل).

وبعد السيطرة على وهران في 1509 وحتى 1558 شكل المرسى الكبير نقطة إنزال الجيوش القادمة بهدف غزو المناطق الداخلية ونقطة استراحة للقوات التي تغزو شمال إفريقيا. ويتوقف الكاتب عند حصار حسن باشا لوهران في فيفري 1563 وكيف تحول – بعد فشله – إلى عين الترك بهدف السيطرة على المرسى مستخدما قوات قبائلية بزعامة ابن سلطان كوكو، فكان الهجوم

عليه بين 15 أفريل و07 ماي ليبدأ القصف بالمدفعية في 15 ماي، لكن في 08 جوان وصلت قوات إسبانية أفشلت الحصار.

وبخصوص الفترة بين 1600 و1830 يقر الباحث بعدم امتلاكه مادة تاريخية تمكنه من الكتابة، ورغم هذا يتحدث عن تحرير المرسى في 17 جانفي 1708 بعد تحرير وهران بأسابيع، لكنه يهمل تاريخ المرسى خلال فترة التحرير هذه حيث لا يقف عنده ولا يعطي تفاصيله ليقفز إلى 01 جويلية 1732 أي تاريخ عودة الاحتلال الإسباني مقرا أن وهران والمرسى الكبير لم يعد لهما النفوذ الذي كان في مرحلة الاحتلال الأولى، وينتهي الباحث إلى تحرير المدينة والميناء في 1792 حيث غادر الإسبان في مارس من هذه السنة محافظين على امتيازات تجارية بالمرسى حسب اتفاقية 12 ديسمبر 1791.

وفي الصفحات الموالية من البحث يهتم الباحث بدراسة:

-عمليات التحصينات المتتالية للمرسى الكبير

-الكثافة السكانية فيه

-وصف المرسى قبل 1563 وبعدها خاصة خلال القرن 18

-حالة المرسى وقت كتابة المقال في 1940

كما أدرج مجموعة مخططات أرشيفية للمرسى توضح حالته خلال المرحلة المدروسة، وملاحق درس فيها حالة الميناء، مسألة الماء وحالة المدفعية.

10 -CASENAVE (J.) Les Gouverneurs d'Oran pendant l'occupation espagnole de cette ville: (1509-1792). Vol 71, Année 1930, pp 257-299

يبدأ Cazenave موضوعه بالحديث عن احتلال المرسى الكبير في 13 سبتمبر 1505 وهو الذي سماه الإغريق Theon Limen بمعنى ميناء الآلهة وسماه الرومان Portus Divini أي الموانئ الإلهية، ثم عن احتلال وهران في 1509 مشيرا إلى دور الكاردينال خيمينس في ذلك.

وقدم الكاتب مبرر اهتمامه بهذا الموضوع وهو احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلال الجزائر والتي تزامنت – حسب الكاتب – مع تدوين تاريخ المستعمرة بعناية خاصة، فكانت مساهمته من خلال ضبط قائمة حكام وهران، ومن خلال دراسة طبيعة تسيير المدينة إداريا قبل ذلك.

وكان حاكم وهران يلقب بـ Capitaine Général des Royaumes de Tlemcen et de Ténès et Gouverneur des Places d'Oran et de Mers El Kebir وفي 1534 أضاف دالكوديت إلى لقبه عبارة القاضي الأكبر Grand Justicier فصار له حق قيادة الجيش والإشراف على العمليات العسكرية والقضاء والإدارة.

وفي القرن 18 صار للحاكم لقب شرفي؛ الحاكم العام le Commandant Général لكن مع حذف عبارة "تلمسان وتنس" ليأس الإسبان من السيطرة عليهما. ويعتمد Cazenave هنا على Diego Suarez الذي نقل إلينا بعض المراسلات الرسمية التي حملت هذه الألقاب وشروط تولي المسؤولية والأجور التي يتلقاها كل حاكم.

كان هؤلاء الحكام يتمتعون بسلطة تامة في وهران والمرسى الكبير حيث لا يقبلون وجود أي إداري معهم، ولا يقدمون تقريرا إلا إلى الملك الذي عينهم في المنصب، وكان لحاكم وهران 06 مساعدين من بينهم ممثل الملك وحاكم المرسى الكبير. وكان له الحق في التصرف مع حكام تلمسان (في الفترة الأولى من الاحتلال) ومع القياد وشيوخ الدواوير وزعماء القبائل والمدن، حيث يعطي الأمان لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء، ويحالف أو يحارب كما يشاء. ونجد في هذا المقال تفصيلا لطرق معاملة الإسبان للقبائل الجزائرية من حيث السلم والحرب والتجارة والضرائب التي كانوا مجبرين على دفعها، ويقدم الكاتب (ص 267) نموذجا لمعاهدة بين حاكم وهران Marquis de Floris y Avila مع شيخ قبيلة بالقطاع الوهراني.

ويعطينا Cazenave ابتداء من ص 284 نظرة إجمالية على الوثائق التي اعتمدها في ضبط قائمة حكام المرسى الكبير ووهران، مع إشارة خفيفة إلى وجود بعض "الهفوات" في بعضها، ثم يعمد إلى رسم هذه القائمة (من ص 289) بدءا بحكام المرسى وانتهاء إلى حكام وهران منذ 19 ماي 1509 حتى تحريرها الثاني.

فمنذ 26 فيفري 1791 أصبحت وهران تحت حكم Don Juan Courten الذي صار يبذل الجهد ليتجنب سقوط المدينة التي يحاصرها الباي محمد الكبير، بينما كان Floridablanca يفاوض الداي محمد بن عثمان باشا (الذي توفي في 12 جويلية 1791) ثم الداي حسن، وتوصل مع هذا الأخير إلى اتفاق 12 سبتمبر 1791 الذي وافق عليه الملك كارلوس الثالث في 09 ديسمبر 1791 بمدريد، ليرحل آخر حكام وهران باتجاه إسبانيا من المرسى الكبير يوم 29 فيفري 1792 على متن الباخرة Saint Joachim.

11 – PESTEMALDJOGLOU (A), Ce qui subsiste de l'Oran espagnol. Vol 79/2, Année 1936, pp 666 – 686

كان هذا الباحث مكلفا بالأرشيف في عمالة وهران، وكاتبا لجمعية الجغرافيا والآثار بذات المدينة، ولذا أنجز حولها هذا المقال الذي بدأه بالحديث عن تأسيسها في 902م – مخالفا ما ذكره Lespes (903م) – وخاصة عن مكانتها حيث أكد هذا الباحث أن ميناءها عرف في ظل الدولة الزيانية ثراء لم يَعرف له مثيلا

إلا في الفترة الفرنسية، وتحدث عن سقوطها في يد الإسبان في 19 ماي 1509م ثم عن تحريرها عام 1708 على يد الباي بوشلاغم الذي يسميه خطأ "محمد" بينما اسمه مصطفى، وهو المعروف عند الإسبان بـ Bigotillos (le Moustachu).

المقال يرسم صورة عامة لأهم ما بقي من وهران "الإسبانية" مع بيان أهم التغييرات التي طرأت على حصونها وطرقها وبناياتها، ويعطي الدارس فرصة مقارنة ما كانت عليه وما آلت إليه سواء في فترة التحرير الثاني (1792-1830) أو فترة الاحتلال الفرنسي.

أما خطة البحث فيوضحها الكاتب منذ البداية وتشمل المحاور التالية:

- ماذا بقي من جدران المدينة وقلعتها
- ما بقي من قصورها وحصونها
- كلمة حول القلاع التي تحمي المنحدر.

غير أن مادة الموضوع ليست مقسمة حسب هذه الخطة، فقد اتخذ صاحب المقال المخطط الحالي للمدينة (1936) منطلقا لرسم مخطط قديم لها يعود إلى الفترة الإسبانية، متحدثا عن حائط المدينة الذي يبلغ طوله 2157 مترا والذي فُتح فيه بابان؛ باب تلمسان وباب Canastel منبها إلى الأخطاء التي يقع فيها الناس

على أيامه كالخلط بين إحدى القلاع المكتوب عليها 1738 وقلعة Torre Corda التي كانت تقع بعيدا عن هذا الباب حيث أقيمت كنيسة Saint–André مكان مسجد تركي. أما باب Canastel فهو المدخل الرئيسي للمدينة، ومنه كان الناس يمرون ببضائعهم. وفي أعلى الباب توجد قلعة مربعة تُرى من شارع مدريد.

وينقل إلينا الباحث صورة القصبة (Casbah ou Citadelle) التي لم يبق منها شيء يعود إلى ما قبل الاحتلال الإسباني سوى المفتاح الذي سلمه حاكم المدينة في 1509 إلى الكاردينال خيمينس، والذي ما زال محفوظا بالمتحف الوطني للآثار بمدريد حسب ما ذكره إسكير في Iconographie Historique de l'Algérie. وكان الباي بوشلاغم قد اتخذ القصبة مقرا له خلال فترة التحرير الأولى (1708–1732) وكان حرمه حيث المحكمة العسكرية على أيام صاحب المقال.

وكان هذا الباحث قد اهتم في مقاله بقضايا كثيرة منها:

– المنازل الوهرانية التي قسمها إلى قسمين؛ إسبانية وموريسكية مع بيان خصائص كل منهما.

– البحرية ويقصد الجهة المطلة على البحر والتي لم تكن السفن ترسو بها قبل الاستعمار الفرنسي وإنما ترسو بالمرسى الكبير.

وفي هذه الواجهة وُجدت المخازن والثكنات. أما تعمير هذا الحي فيعود إلى نهاية القرن 18 حسب لوحة مؤرخة بـ 1789.

ولا يغفل الباحث عن بيان التحصينات الخارجية خصوصا في قصر Santa Cruz الذي تم بناؤه – على حالته الأخيرة – ما بين 1735– 1738 من قبل حاكم وهران Vallejo مكان قصر سابق يعود إلى ق 16.

كما يشير الباحث إلى الكتابات الإسبانية التي غزت المدينة والتي بلغ عددها 65 ولم يبق منها إلا 18 يُحتفظ بثلاثة منها في المتحف البلدي بوهران، ويذكر تواريخ كل منها والمكان الذي توجد به، وكلها مكتوبة بالإسبانية إلا واحدة كتبت باللاتينية.

ملاحظة: ألحق الباحث مقاله بمجموعة من الصور الملتقطة لجهات من وهران لكنها لم تُدرَج مباشرة عقب المقال وإنما أدرجت ابتداء من ص 1083، وهو ما يفوّت على القارئ فرصة الاطلاع عليها.

12 - PESTEMALDJOGLOU (A), Le consulat français d'Oran de 1732 à 1754, Vol 86, Année 1942, pp 220-254

الموضوع هام جدا بالنسبة للذين يدرسون تطور العلاقات الدبلوماسية بين إسبانيا وفرنسا بوهران وللذين يهتمون بتجارة الإيالة في بايلك الغرب مع القوى الأوربية، فضلا عن صدام مصالح الدول الأوربية وتداخلها والتي كانت وهران مسرحا واسعا لها.

يمر الباحث عبر مرحلة ازدهار التبادل التجاري بين المغرب والأندلس وتنامي المبادلات بين القوى البحرية المتوسطية؛ بيزا Pise، جنوة، البندقية، مرسيليا وكاتالونيا ليصل إلى إقرار مبدئي بتراجع تجارة وهران عقب احتلالها من قبل الإسبان في 1509 حيث توقفت مبادلاتها مع تلمسان الزيانية ومع المناطق الداخلية التي صارت بيد الأتراك، ولم يستطع الإسبان توفير ضمانات للمتعاملين معهم، ولذلك اقتصر نشاطهم على استيراد المؤونة الضرورية.

وكان تعيين نائب قنصل فرنسي بوهران من قبل القنصل الفرنسي بأليكونت لأول مرة كنتيجة للتوافق الفرنسي الإسباني عام 1700 الناتج عن اعتلاء فيليب الخامس عرش الملوك الكاثوليكيين. وبعد تحرير وهران الأول فُتح المجال أمام مفاوضات دولية حيث حصل الإنجليز – أعداء الإسبان – على حق المتاجرة مع وهران، فعمل القنصل الفرنسي بالجزائر Clairambault على الحصول على امتيازات مماثلة لكنه لم يحصل من الداي إلا على تسويفي، ووجب انتظار الفرنسيين 11 عاما حتى 17 ديسمبر 1719 لتحصل فرنسا على حق تعيين نائب قنصل في وهران يتبع القنصل الفرنسي بمدينة الجزائر، ورغم هذا وجب الانتظار أيضا 11 عاما أخرى لتطبيق هذا الاتفاق.

وكان العائق الأكبر هو تدخل الإنجليز للحفاظ على امتيازاتهم بوهران إضافة إلى الغرفة التجارية بمرسيليا التي عملت على الاستحواذ على حق تسيير المؤسسات الفرنسية بالجزائر، والتاجر Bernard Michens الذي أقنع الداي بمنحه امتيازات تجارية بوهران ابتداء من 1723 وهو ما احتج عليه

مجلس مرسيليا على اعتبار أنه مخالف لاتفاقية 1719 المذكورة أعلاه، متهما Michens بإعطاء وعود للداي بمنحه مبلغ 200 جنيه.

وبعد فشل هذا التاجر عُين Dominique Dedaux منذ 1730 نائب قنصل فرنسي بوهران، واستطاع خلال السنتين المواليتين إحراز نجاح في ربط علاقات مع البايلك ومع الأهالي، غير أنه تورط في تنبيه مونتمار الإسباني في 30 جوان 1732 (ليلة استعادة وهران) إلى أن الباي أخرج النساء والأطفال من المدينة بنية العودة للدفاع عنها، وكان هذا الاتصال مساعدا للإسبان، وفلما سيطروا على المدينة ثمنوا فعله هذا وأبقوا على القنصلية الفرنسية بينما لم تكن للقوى الأوربية الأخرى قنصليات في وهران.

وفي 1752 عُوّض Dedaux – المستدعى إلى كاتالونيا لشغل منصب القنصل بها – بالقنصل David لكن مدريد رفضت استقباله في وهران فعوّضه Pierre Prat، وفي ص 225 من المقال بيان لمهامه خاصة بعد تفويضه رسميا من قبل الملك بتاريخ 23 ديسمبر 1754.

ثم يعود المؤلف إلى Dedaux يتتبع حياته وتنقلاته وحركاته المشبوهة خاصة وقد تلقى منذ 1734 منحة سنوية من الملك الإسباني تقدرت بـ 100 Pistoles، وظل يتنقل بين وهران وإسبانيا بحجة معالجة زوجته من آثار مناخ وهران ومعالجته هو أيضا حتى أن فترة 19 عاما التي قضاها في منصب القنصل غاب خلالها فترةً لا تقل عن 06 سنوات؟؟؟

ورغم انتقال الباحث من قنصل إلى آخر إلا أنه كان يعود بالحديث إلى الأول مهتما بقضايا شخصية أثرت على خط التمثيل الدبلوماسي ليصل من خلالها إلى استنتاج هام؛ إن مثول Dedaux عامي 1737 و1739 أمام محكمة عادية يدل على أن الوضع القانوني للقنصل الفرنسي لم يكن عاديا.

وفي إطار الحديث عن الوضع الدبلوماسي الفرنسي في وهران يعرّج الباحث على الكثافة السكانية الفرنسية بالمدينة مؤكدا على أن كثيرا من الفرنسيين دخلوها مع مونتمار، وهو ما جعل الداي يحتج لدى القنصل الفرنسي بمدينة الجزائر على الإعانات التي قدمها هؤلاء الفرنسيون (وعددهم ما بين 4000 و5000) للإسبان. ويحاول الكاتب التنبيه إلى أن هؤلاء كانوا

سويسريين أو من والونيا جنوب بلجيكا الحالية (Des Wallons) لكنه لم ينفِ مشاركة بعضهم بصفتهم فرنسيين ولم يدّعِ – في المقابل – تحوّل هذه المساعدة إلى اتفاق فرنسي إسباني.

ولا يُتم الباحث مقاله هذا حتى يحدثنا ضمن عدة صفحات عن:

- حالة التجارة الفرنسية بوهران ضمن هذا التمثيل الدبلوماسي
- توسع التبادل التجاري الفرنسي مع البحارة الجزائريين ومع الإنجليز وأثر ذلك على الموقف الإسباني الذي أحس بضياع مصالحه في باليك الغرب.

استنتاجات:

- اهتم الفرنسيون في المجلة الإفريقية بالكتابات التاريخية التي ظهرت ببايلك الغرب وأرّخت لوهران من حيث احتلالها وتحريرها الأول والثاني ودور قبائلها في دعم الوجود الإسباني بها أو إنهائه.
- رغم التنافس الاستعماري الفرنسي الإسباني ظل كثير من الباحثين الفرنسيين يأسفون على نهاية الاحتلال الإسباني

بوهران، فلطالما اعتبروه واجبا مسيحيا خلّص أوربا من "عش القرصنة" على حد تعبير Lespes.

- ظل الفرنسيون يشككون في قيمة الكتابات المحلية ويثمنون الكتابات الإسبانية في المقابل، كما فعل بربروجر حين ناقش قضية تفاوض حسن آغا مع شارلكان.
- عالجت هذه الكتابات مسألة تخلي إسبانيا عن وهران بحكم أنها لم تعد تنفعها، وفي هذا تقليل رهيب من جهد البايلك من أجل تحرير المدينة.
- رغم أهمية هذه الكتابات فإنها كثيرا ما حملت تضاربات واضحة وصلت إلى حد التناقض، وهو ما يتطلب من القارئ حذرا شديدا.
- اهتمت هذه الكتابات بمسألة خيانة قبائل وهران، وعملت على تقديمها دليلا أحيانا على نفورها من النظام العثماني وأحيانا أخرى على انهيار البنية السياسية على مستوى القبيلة من خلال الإشارة إلى التمرد على القيادات المحلية.

الموضوع السادس

موقف المؤرخ الفرنسي مارسال إيميريت من مذكرات ليون روش

ملخص:

عاشت الجزائر على مدى أكثر من قرن تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية، وليس تعبير السيطرة هنا مجازيا، فالذي يطلع على ما فعلت المدرسة الاستعمارية بكل الآليات التي املكتها يدرك خطورة الأهداف التي كانت ترمي إليها. ولعل من أخطر الاستراتيجيات التي تبناها الفرنسيون تشجيع المغامرين وذوي المواهب لاستغلالهم في تنفيذ المخططات الكبرى التي رسمها الاستعمار.

وكان من بين هؤلاء المغامرين ليون روشLéon Roches الذي أبان عن قدرة فائقة في تعلم العربية والتقرب من الجزائريين والتجسس عليهم، وفي التخفي باستخدام الدين الإسلامي سواء لخداع الأمير عبد القادر في الجزائر أو للوصول إلى تنفيذ مخطط أشمل في تونس ومصر والحجاز.

والمتتبع لحياة روش يجد نفسه أمام صورتين متناقضتين؛ صورة روش الذكي الذي زاوج بين خدمة بلاده فرنسا وبين تحقيق طموحاته الواسعة حتى صار وزيرا مفوضا، ليلخص هذه التجربة العميقة ضمن مذكراته "اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام" والتي تلقفتها الأوساط المثقفة بعد نشرها في الربع الأخير من القرن

التاسع عشر، وساهمت إلى حد بعيد في كتابة تاريخ السنوات الأولى من الفترة الاستعمارية بالجزائر.

والصورة الثانية هي صورة روش "الذي ينقل المعلومة عن غيره" وقد ظهرت حين نشر مذكراته سالفة الذكر بعد 40 سنة من وقوع أحداثها، وهو ما جعل علامات الاستفهام تُرسم على أكثر من صعيد، خاصة وأن قراءها لاحظوا تشابها كبيرا بين مضامينها ومضامين مؤلفات أخرى سابقة لها. ومن هؤلاء المؤرخ الفرنسي مارسيل إميريت Marcel Emerit الذي سنحاول التعرف على موقفه من مذكرات ليون روش من خلال مقال نشره في المجلة الإفريقية عام 1947.

تقديم:

عاشت الجزائر على مدى أكثر من قرن تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية، وليس تعبير السيطرة هنا مجازيا، فالذي يطلع على ما فعلت المدرسة الاستعمارية بكل الآليات التي املكتها يدرك خطورة الأهداف التي كانت ترمي إليها. ولعل من أخطر الاستراتيجيات التي تبناها الفرنسيون تشجيع المغامرين وذوي المواهب لاستغلالهم في تنفيذ المخططات الكبرى التي رسمها الاستعمار.

وكان من بين هؤلاء المغامرين ليون روشLéon Roches الذي أبان عن قدرة فائقة في تعلم العربية والتقرب من الجزائريين والتجسس عليهم، وفي التخفي باستخدام الدين الإسلامي سواء لخداع الأمير عبد القادر في الجزائر أو للوصول إلى تنفيذ مخطط أشمل في تونس ومصر والحجاز.

والمتتبع لحياة روش يجد نفسه أمام صورتين متناقضتين؛ صورة روش الذكي الذي زاوج بين خدمة بلاده فرنسا وبين تحقيق طموحاته الواسعة حتى صار وزيرا مفوضا، ليلخص هذه التجربة العميقة ضمن مذكراته "اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام" والتي تلقفتها الأوساط المثقفة بعد نشرها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وساهمت إلى حد بعيد في كتابة تاريخ السنوات الأولى من الفترة الاستعمارية بالجزائر.

والصورة الثانية هي صورة روش "الذي ينقل المعلومة عن غيره" وقد ظهرت حين نشر مذكراته سالفة الذكر بعد 40 سنة من وقوع أحداثها، وهو ما جعل علامات الاستفهام تُرسم على أكثر من صعيد، خاصة وأن قراءها لاحظوا تشابها كبيرا بين مضامينها ومضامين مؤلفات أخرى سابقة لها. ومن هؤلاء المؤرخ الفرنسي مارسيل إميريت Marcel Emerit الذي سنحاول التعرف على

موقفه من مذكرات ليون روش من خلال مقال نشره في المجلة الإفريقية عام 1947[1].

العرض:

نبذة عن حياة روش:

ولد ليون روش بـغرونوبل Grenoble في 27 سبتمبر 1809 ودرس في مدارسها ومدارس طولون Toulon، وجاء في كثير من المراجع أن وفاته كانت في 1901[2] غير أن جريدة La Dépêche Tunisienne نعَتْهُ قبل ذلك في شهر جويلية من عام 1900 وذكرت أنه توفي (au château de la Tourate) قرب Bordeaux عن عمر يناهز 92 عاما[3].

ونال روش شهادة البكالوريا بثانوية تورنون Tournon بغرونوبل عام 1828 ودخل معهد الحقوق لمدة 06 أشهر. كان واسع الطموح ميالا إلى المغامرة، فانقطع عن الدراسة واتصل بأحد التجار بمدينة مرسيليا Marseille كان صديقا قديما لأبيه، فكلفه بمهمة تجارية مكنته من زيارة كل من كورسيكا وسردينيا وجنوة، كما زار جل أنحاء إيطاليا الشمالية. وكان أبوه ألفونسو روش Alphonse Roches ملحقا بخدمات العتاد العسكري في الجزائر منذ الحملة الفرنسية في جويلية 1830 واستحوذ على 200 هكتار

من الأراضي الخصبة قرب مدينة الجزائر فاستدعى ولده ليون ليساعده، فقدم إلى الجزائر في 1832، وأجبرته هذه المهمة على تعلم العربية وسط الأهالي ليسهّل اتصال والده بهم[4]، إضافة إلى رغبته في التواصل مع فتاة كان قد تعلق بها اسمها خديجة.

بدأت اتصالات الشاب ليون بالفرنسيين حين قدمه والده إلى الجنرال دوروفيغو De Rovigo فعينه ملازما على فرقة الفرسان الخيالة الذين صاروا يرافقونه في حملاته على المتيجة وضواحيها، واتصل بفرنسيين آخرين فزادت حماسته لتعلم العربية، وهو ما تمكن منه على يد عبد الرزاق بن بسيط أحد الجزائريين من أصل أندلسي. غير أن مستواه في العربية بدا ضعيفا حين حضر مجلس أعضاء اللجنة الإفريقية مع بعض الجزائريين لأنه ظل عاجزا حينها على ترجمة المصطلحات القانونية والعقارية فعقد العزم على تعلمها بمساعدة أستاذه.

أما اتصال روش بالأمير فكان عن طريق حيلة اعتناق الإسلام، والتي انطلت على مرابط البليدة سيدي بلقاسم بن سيدي الكبير الذي عرض عليه الجاسوس رغبته في الاتصال بالأمير ليقدم له ولأتباعه ما يستطيع من المساعدة، وتدرج في ذلك حتى بلغ إلى قدور بن رويلة نائب خليفة الأمير على المدية محمد بن علال. وفعلا اتصل بالأمير الذي كان قد زحف إلى الشرق وعسكر

على ضفاف وادي ونوغة (بالمسيلة حاليا) فاستقبله وبذلك تبدأ مرحلة جديدة في حياة ليون روش الذي سمى نفسه عمر[5].

وأما عنوان الكتاب "ثلاثون سنة في رحاب الإسلام" فواسع مقارنة بما جاء فيه، ويبدو أنه "كان ينوى كتابة مذكراته عن ثلاثين سنة قضاها مسلما، ولكنه لم يكتب منها إلا ذكريات عشر سنوات صدرت في مجلدين عامي 1884–1885م. ولما فكّر كارابي (E.S. Carraby) في إعادة نشرها عند بيران وشركائه (Perrin et Cie) أصدرها عام 1904م بالعنوان الحقيقي "عشر سنوات في الإسلام"، بعد أن حذف منها "بعض التفاصيل التي لم تعد لها أهمية اليوم" كما يقول[6].

موقف إيمريت من مذكرات روش:

لطالما تم تصوير روش على أنه واحد من الأبطال الحقيقيين الذي خطفوا قلوب القادة السياسيين والعسكريين. فقد جاء في كتاب أحد الفرنسيين أن بيجو ظل ينعته حتى وفاته بروش الشجاع «Mon brave Roches» وأن الأمير عبد القادر ظل يقول عنه: "صديقي الوفي" «Mon ami fidèle»[7] كما ألهمت قصته كتّابا كثيرين فكتبوا عنه، منهم P. Mariel الذي ألف Honneur et Patrie[8] (شرف ووطن). وحين نعَتْه الجريدة المذكورة سابقا ذكّرت بأنه ترك أثرا عميقا في تاريخ تونس.

وأدى تصديق كثير من الباحثين لروش فيما كتب إلى التركيز على قضية الفتوى التي ادعاها، وهو ما جعلهم يكتبون بحماس شديد أوقع بعضهم في مشكل كيل الاتهامات للعلماء في كل من تونس ومصر والحجاز، فقد كتب أحدهم: "وهذه من الكوارث الفكرية التي تُظهر الانجرار الجاهل لبعض الشخصيات الدينية والعلمية وراء سراب وتلويحات وهمية دون النظر الجدي إلى العواقب والآثار التي تنتج عنها"[9].

لكن المؤرخ الفرنسي مارسال إيميريت لا يخفي منذ بداية مقاله عدم تصديقه لروش في كثير مما قاله، بل ويدّعي ألا أحد قبله قد انتقد هذه المذكرات. والواقع يثبت أن الثنائي ديني وسليمان ابن براهيم باعمر[10] قد انتبها قبل إيميريت إلى المغالطات التي احتواها كتاب روش وهو يدّعي – كما يقول إيميريت نفسه – أنه أحب فتاة مسلمة اسمها خديجة فقرر اعتناق الإسلام ومصارحتها بحبه، غير أنها تزوجت وانتقلت مع زوجها إلى الجنوب، وابتداء من 1837 قرر روش عرض خدماته على الأمير، وتسمى باسم عمر بن روش، وقد سمح له وجوده في معسكره بالحصول على وثائق هامة حول المناطق الداخلية من الجزائر زمن الاحتلال المحدود[11].

وفي لحظة ما أقر روش للأمير أنه غير مسلم ونجا من الموت، وفي 1839 فر ليلتحق بالجيش الفرنسي حيث الجنرال

Schramm وبعده الجنرال Bugeaud الذي صار حاكما للجزائر. وتبدأ هنا مرحلة جديدة يميزها نشاط دبلوماسي بطنجة وطرابلس وتونس واليابان حيث حصل في النهاية على رتبة وزير مفوض.

روى روش أنه كان يسجل – منذ الصباح – كل ما يحدث معه خلال اليوم، وهو ما أعانه على كتابة مذكراته، غير أن هذا لم يقنع إيميريت الذي سيتتبع أخطاء المترجم الجاسوس الكثيرة ويعطي أمثلة متعددة عليها. وكانت البداية مع انتقال روش – كما ذكر – من وهران على متن الباخرة Acheron بقيادة القبطان Marceau ووصوله إلى الجزائر يوم 19 نوفمبر 1839، لكن هذه الباخرة كانت في هذه الفترة تشتغل على الخط الرابط بين عنابة ومدينة الجزائر، أما روش فنقل عل متن الباخرة Le Vautour وكان وصوله يوم 18 نوفمبر.

ويمضي إيميريت في بيان شكوكه في رواية روش فيقارن بينه وبين Daumas الذي كان قنصلا لفرنسا بمعسكر بين نوفمبر 1837 وأكتوبر 1839 ليصل إلى أن الأخير كان أكثر مصداقية من سابقه. فقد حظي روش – خلال فترة بقائه ضمن معسكر الأمير عبد القادر – بمكانة كبرى حيث كان يراقب الجيش من حيث ملبسه وأجوره، ويسجل معلومات عن القبائل ويعرّف شيوخها

وقوتها، ويقرأ للأمير الجرائد الفرنسية حتى كسب ثقته فعينه مسؤولا عن الخزينة في تاقدمت. ولكن روش لم يذكر شيئا من هذا في كتابه. لماذا؟

ببساطة – حسب إيميريت طبعا – لأنه لم يشأ أن يُتهم بالمساهمة في بناء قوة الأمير عبد القادر خصم فرنسا، وكتب مذكراته – على عكس ذلك تماما – ليبرهن على أنه ما ظل في معسكر الأمير إلا ليحمله على المحافظة على السلم معها. لكنه بهذا الفعل يُخفي كثيرا من الحقائق التي كان عليه تقديمها للمؤرخين، بل فعل أسوأ من هذا حين زوّر كثيرا منها ليبرر أطروحته.

من هذا المنطلق الخطير ادعى روش أنه كتب رسالة إلى Daumas في ديسمبر 1837 يخبره فيها أنه – في اليوم الذي تندلع فيه الحرب بين الأمير وفرنسا – سيعود إلى وطنه إذا سلم من الموت وهو يحاول ذلك. غير أن Daumas يذكر أن هذه الرسالة بُعثت إليه في جانفي 1838 حين كان روش بتلمسان[12].

ويذهب إيميريت بعيدا حين يصرح بأن مذكرات روش لا تصلح إلا لدراسة الأحداث القليلة التي كان له دور فيها كحصار عين ماضي في 1838، وحتى هذه لم تسلم من خيال روش. ذلك أن المؤرخ المهتم بمعرفة الطريق بين تاقدمت وعين ماضي يجد ثلاث

أطروحات؛ أطروحة Daumas الذي يعلن أن الانطلاق كان يوم 11 جوان والوصول يوم 20، أطروحة Roches الذي يتحدث عن الانطلاق يوم 12 جوان وأنه انتُدِب مفاوضا على طول الطريق ليصل جبل العمور يوم 21، وأطروحة Arnaud التي ستأتي بعدهما[13] والتي يعتمد صاحبها على شاهد عيان هو القايد ريان Caïd Rian الذي أكد أن روش حين بعثه الأمير للتفاوض مع التيجاني رافقه 20 فارسا بينما لا يقر هو إلا باثنين؛ دليلٍ واحد وخادمِ الأمير، وهذا ليعطي صورة بطولية لمهمته هذه، وهو الذي كاد يقتله جنود التيجاني حسب رواية هذا القايد.

وفيما تعلق بمسألة خضوع المدينة تأتي رواية الفرنسي Nicolas Blanc لتؤكد أن مصطفى بن تامي (هكذا ورد والأصح التهامي) هو من دخلها ليفاوض التيجاني وليس روش الذي لم يتدخل الا في اليوم الموالي مع اثني عشر ضابطا لإعادة المفاوض أي ابن التهامي إلى معسكر الأمير. وهذه الرواية نجد ما يؤيدها في تحفة الزائر دون ذكر لدور ليون روش[14]. فواضح إذًا أن روش عمل على تضخيم دوره ليكتب عن مهامه لدى الأمير عبد القادر ضمن كتابه الذي جاء محشوا للغاية على حد تعبير إيميريت.

ويستمر إيميريت في عرض الكرونولوجيا التي قدمها روش، ولكنه يعتبرها "مَرَضًا" لديه. فقد روى روش أن الأمير جمع خلفاءه

في تازا يوم 03 جويلية 1839 لاستقبال القفطان من سلطان المغرب عربونا على الولاء له، ولاتخاذ قرار استئناف الحرب ضد الفرنسيين، غير أن Daumas يذكر أن استدعاء الخلفاء لم يكن إلا في 28 جويلية وأن الاجتماع ذاته لم ينعقد الا في شهر أوت. وينتهي إيميريت الى أن القيمة التاريخية للجزء الأول من مذكرات روش ضئيلة، ثم ينبه القارئ إلى أن مفاجأته ستكون كبيرة جدا عند الاطلاع على الجزء الثاني، وفي هذا تشويق له ليتتبع بقية الموضوع باهتمام.

الرحلة إلى تونس:

يذكر روش أن الجنرال بيجو كلفه في نهاية جويلية 1841 بالعمل على عقد اجتماع لعلماء القيروان لتبنّي فتوى مفادها أن المسلمين مخطئون حين يتمسكون بمبدأ قتال النصارى وتوصِل في النهاية الى إيقاف الجهاد بالجزائر. لقد انتقل روش إلى تونس على متن قارب حربي صغير ليصل – يوم 13 أوت 1841 متخفيا في زي مسلم – إلى القيروان "المدينة المقدسة" التي لم يكن لأحد من النصارى الحق في دخولها. واستطاع أن يحضر سرا اجتماع علمائها الذين تبنوا الفتوى ونصحوا الفرنسيين بتمريرها إلى القاهرة ودمشق وبغداد ليصير لها وزن أكبر.

وفي اليوم الموالي انتقل روش إلى سوس وكاتب السيد De Lagau قنصل فرنسا بتونس ليمده ببعض المال، وطلب منه أن يمرر إلى الجنرال بيجو تقريره المفصل حول خطواته ونتائجها المحققة. ومن باب التمويه على الجواسيس تظاهر روش – كما ذكر إيميريت – بالذهاب إلى مدينة تونس ونصبَ خيمته قرب الآثار الرومانية بمنطقة الخربة Kherarba (هكذا) وعاد في اليوم الموالي إلى سوس حيث تناول العشاء عند عميل فرنسي واستقل يوم 23 أوت سفينة إيطالية نقلته إلى مالطا.

ويعقب إيميريت على هذا بقوله: "قصة عجيبة" فكيف لا يصف صاحبها البلد الذي مر به، بل يعتبر ذلك حشوا ويقتصر على مكان واحد هو الخربة، وللدخول إلى المدينة الممنوعة كان يكفي أن يتخفى روش في زي خادم مسيحي لا يعرف من العربية كلمة واحدة !!! ثم يتساءل إيميريت عن فتوى القيروان الهامة. من رآها؟ لا أثر لها في الأرشيف، ولم يُحتفظ بنسخة منها في الوسط الديني التونسي، ولم ترد في أيٍّ من تقارير بيجو ولا في أيٍّ من رسائل الجنرالات.

ثم يمضي إيميريت ليشكك في طبيعة مهمة روش بتونس، ويسوق ثلاث وثائق ليعطي دليلا على ذلك؛ رسالة بيجو إلى القنصل بتونس المؤرخة بـ 19 جويلية 1841 والتي عثر عليها

المؤرخ الشاب Arnoulet بأرشيف القنصلية الفرنسية بتونس. ووثيقة صادرة عن ذات القنصلية تذكر وصول روش إلى تونس يوم 01 أوت ثم وثيقة عن جواز سفره الذي سلم له يوم 07 أوت. إضافة إلى رسالة عثر عليها إيميريت في أرشيفات وزارة الحربية من بيجو إلى المارشال Soult بتاريخ 01 أوت 1841 والرد عليها، ليصل إلى نتيجة مفادها أن روش لم يكلَّف إلا بربط علاقة مع التيجاني عدو الأمير عبد القادر، أما قضية فتوى القيروان فلا يرى إيميريت لها أثرا على الإطلاق.

كما يشكك إيميريت أيضا في زيارة روش لمدينة سوس ويبني حجته على رسالة قنصل فرنسا بتونس De Lagau إلى قنصلها بمالطا De Frabreguette التي ادعى روش أنه نقلها، وهو الذي كتب من سوس – حين قرر الذهاب إلى مصر – إلى De Lagau بمدينة تونس يطلب منه رسالة تزكية، وكان عليه الانتظار أسبوعا كاملا ليصله الرد. لكنه يذكر أنه أقلع باتجاه مالطا في اليوم الموالي لقراره المذكور، ومن هنا "فقد غرق روش في أكاذيبه" فإذا صدق في قضية رسالة التزكية فهي الدليل إذًا على أنه لم يزر في تونس إلا عاصمتها.

وتتوالى أدلة إيميريت على كذب روش الذي ذكر أنه التقى في مالطا بالسيد Merimée وعالم الآثار Lenormant وأمضى

معهما عدة أيام زاروا معا خلالها مدينة Lavalette وكل المناطق الداخلية من الجزيرة بحثا عن آثار فينيقية. ربما كانت قضية اللقاء صحيحة لكنّ هذين الشخصين دخلا الجزيرة يوم 07 سبتمبر 1841 وغادراها في اليوم الثامن منه، وبذلك تكون قضية صحبة روش لهما مدة طويلة مجرد كذب وافتراء.

الرحلة إلى مصر:

يذكّرنا إيميريت في البداية أن هدف روش – من زيارته إلى مصر – لم يكن محددا ولم يذهب إليها بأمر من أحد، وإذا كان قد ذكر في مذكراته بأنه كان يهوى الموت في مهمة كبرى فإن حرصه على الحياة يبدو واضحا هذه المرة. كما يدعي روش أنه التقى في بلاد محمد علي بفرنسيين كثيرين لكنه لم يقدم شيئا عن أي منهم.

وبعد هذا يتهم إيميريت روش صراحة بالسرقة العلمية. لقد زعم روش أنه صار صديقا "للشيخ التونسي"[15] وهو مصري يمكن التعرف عليه دون الحاجة إلى زيارة مصر، فهو صاحب كتاب عن بلاد السودان، وقد تعرف على الدكتور Perron الذي يُعتقد أنه كان وراء تأليفه لهذا الكتاب لاهتمام الفرنسيين بالمنطقة، وهو الذي ترجمه إلى الفرنسية[16] وكتب مقدمته الثرية. ولا يعرف روش شيئا عن هذا الشيخ سوى ما جاء في هذه المقدمة.

وإذا كان Perron قد ذكر أنه تلقى دروسا في العربية على يد هذا الشيخ فإن روش لم يتردد في ادعاء ذلك أيضا، ويعطي تفصيلا أدق لهذا التعلم عبر ثلاث صفحات لكنها صورة لما جاء في كتاب Voyage en Arabie للسويسري Burckhardt[17]، حيث يثني على صفاء النطق بالحجاز، وحين يتحدث عن اللهجات العربية بإفريقيا يستخدم نفس الكلمات التي استخدمها السويسري، حتى أنه لا يستخدم سوى الأمثلة التي أوردها هذا الكاتب: Pain, Cheval, Assieds-toi.

لم يكن روش حذرا وهو يسرد أسماء الذين لقيهم بمصر، فقد التقى عند الكولونيل Sèves كثيرا من أتباع الفكر السانسيموني وراح يدّعي أن من بينهم Combes وTamisier وهما رحالتان يمكن ذكرهما لشهرتهما باعتبارهما قد أصدرا كتابين، ولم يفوّت إيميريت هذه الفرصة للإيقاع بروش فـ Combes كان خلال هذا العام بأثيوبيا ولم يعد منها إلا في بداية 1843، بينما كان Tamisier بباريس يسيّر مؤسسة تأمين قبل أن يشرف على جريدة للنقد الموسيقي.

وبخصوص قضية الفتوى يورد إيميريت رسالة روش إلى بيجو التي عُثر عليها بأرشيف وزارة الحربية تحت رقم 78 والمؤرخة بـ 24 أكتوبر 1841 ويقارنها بالرسالة التي أوردها روش في

مذكراته، والتي لم يورد فيها أي إشارة إلى الشيخ التونسي ولا إلى تقرير Fresnel[18] وصداقته لمحمد علي ولا إلى الجامع الأزهر.

كما لم يورد روش في رسالته مخطط نشر السلم بالجزائر اعتمادا على فتوى تحريم الجهاد، وإنما تحدث فيها عن إنشاء حلف مع الناقمين على الأمير عبد القادر. وقد كان الاجتماع في بيت الشيخ القادري[19] وهو ما يبين أنه اجتماع لمجموعة من المتآمرين إذ حضر فيه أعداء الأمير أمثال الحاج ابن حضري أخي مصطفى بن سماعيل ومصطفى بن مزراق باي المدية السابق وبعض الكراغلة. وكان القادري قد وقّع كما وقّعت البقية، لكن روش بعد أربعين سنة[20] ينفي هذا التوقيع في مذكراته ليبعد القادري عن المشهد حتى لا يظهر أن برودة علاقته الشخصية بالأمير هي التي جعلته ينضم إلى المتآمرين عليه.

الرحلة إلى مكة:

يرى إيميريت ابتداء أنه مهما كانت علاقة روش بمحمد علي والقنصل الفرنسي بجدة Fresnel فإن ضغط السلطان العثماني كان سيمنعه من دخول مكة، ثم إذا كان المقدم التيجاني قد تكفل بنقل الفتوى من القاهرة إلى مكة لعرضها على مجلس ديني آخر فما ضرورة مرافقة روش له وهي التي قد تعرّض المسألة كلها للفشل.

يستمر إيميريت في بيان تناقضات روش ويتتبع الكرونولوجيا التي رسمها هذا الأخير في كتابه:

- 06 نوفمبر: مجلس العلماء يعتمد الفتوى بالقاهرة
- 10 نوفمبر: روش يبعث رسالة إلى بيجو من القاهرة
- 06 نوفمبر: روش يغادر القاهرة
- 09 نوفمبر: يصبح على الطريق بين عجرود والمدينة المنورة
- 24 أكتوبر: يرسل تقريرا رسميا عن مجلس القاهرة المنعقد في 06 نوفمبر !!!

فكيف يكون على طريق المدينة يوم 09 نوفمبر بعد كل هذا الخلط؟؟؟

يروي روش إذًا أنه توجه من قلعة عجرود إلى المدينة ومنها إلى مكة ثم الطائف حيث حصل على الموافقة على الفتوى من قبل شريف مكة، ثم توجه إلى عرفات لكن بعض المسلمين الجزائريين كشفوا حقيقته فتم تقييده واقتياده على ظهر جمل إلى قصر جميل ولم يستيقظ إلا في اليوم الموالي، وفهم أنه تم اختطافه من قِبل عبيد الشريف السود حتى يجنبوه القتل. ثم نُقل إلى جدة ومنها إلى مصر حيث تعرض إلى سرقة بشعة من قبل "مغربي شرير".

يعلق إيميريت على هذا باستخدام مقارنة ذكية بين ما ورد عند روش وما ورد عند Burckhardt مؤكدا على التشابه الدقيق مع التنبيه إلى فرق واحد هو أن المسارين جاءا بشكل متعاكس، وهو ما يخدع القارئ، لكنها نفس المراحل، نفس المعطيات الجغرافية، نفس الوصف الخاص بالبيانات ونفس الملاحظات عن السكان.

ورغم أن روش يحاول تغيير التعبير وكتابة الكلمات العربية فإن إيميريت يصرح بأنه راقب جميع التفاصيل وثبت لديه أن روش لم يضف على كتاب Burckhardt كلمة واحدة وأنه مصدره الوحيد. فـ Burckhardt لم يمر عبر قلعة عجرود واكتفى ببعض المعلومات التي حصل عليها من الحجاج، وكان على روش أن يقدم تفاصيل أوضح بما أنه ادعى مروره عبر هذه الطريق لكنه اكتفى بذكر ذات الأسماء التي وردت عند Burckhardt وأضاف إليها حوادث وقعت على الطريق.

ولا يخفي إيميريت امتعاضه من محاولة روش إظهار علمه باللغة، حيث نقل وصف المدينة وتحدث عن باب الحجيرة فعزا تسمية الحجيرة إلى هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بينما هي تصغير للحجرة التي تعني الغرفة. كما يتهم إيميريت روش بأنه تسرّع في قراءة كتاب Burckhardt ولذلك أخطأ في نقل المعلومات منه. فقد ذكر أن رئيس العبيد المكلفين بحراسة نساء

السلطان بالمسجد النبوي يسمى شيخ الحرم ويسمى أيضا Kisslar–aghassi، بينما يقول السويسري Burckhardt إن رئيس العبيد الحالي يعرف بشيخ الحرم وأن تسميته القديمة هي Kisslar–aghassi أي المسؤول عن البنات في قصر السلطان سليم. وإذا كانت تسميته التركية هذه قد ظلت مستمرة ففي إسطنبول لا في الحرم المكي.

وزعم روش أنه توقف بجبل أيوب بينما ذكر Burckhardt جبلا بهذا الاسم يقع على بعد 10 أميال شرق الطريق وتسكنه قبيلة معروفة بقطع الطريق لا يحسن الاقتراب منها. كما لم يسلم روش من النقل حين وصف مكة والمدينة والطائف ولم يزرْ أُحُدًا ولا الكعبة إلا لأن السويسري زارهما[21]. وفي مذكرات روش حديث مركّز عن جبل عرفات وما وقع له فيه وهنا يتدخل إيميريت ليطلب من القارئ فتح كتاب السويسري وإجراء مقارنة ليتأكد أنه ليس هناك كلام منقول نقلا تاما كهذا الكلام، ويتعجب لأن روش لم يبذل أي جهد لإخفاء السرقة العلمية.

ونظرا لأن Burckhardt لم يعد إلى القاهرة عن طريق القصير فإن روش بحث عن رحالة آخرين وصفوا هذا الطريق قبله خاصة Edmond Combes صاحبVoyage en Egypt وMaxime du Camp الذي جاء بعده بصحبة Flaubert.

وهنا أيضا لم يكلف روش نفسه أي عناء فلم يضفْ شيئا عما جاء به Camp: نفس المراحل، نفس الملاحظات عن عيون الماء وعن مدينة قنا و"حي البغاء" فيها. ويدّعي روش أنه انتقل إلى إيطاليا وقابل البابا فأقنعه بالانضمام إلى اليسوعيين والعودة إلى الجزائر لإتمام مهمته.

ويتساءل إيميريت عن سبب تأخر روش في نشر كتابه. والجواب عند واضح. لم يستطع الجاسوس نشر هذا الكتاب حين كان الشهود أحياء أما وقد ماتوا فقد خلا له الجو. ثم إن القنصل الفرنسي بجدة Fresnel كان يكاتب وزير الخارجية الفرنسي خصوصا حول ما تعلق بالحج، وقد تحدث عن حج 1842 ولم يذكر شيئا عن روش ولا عما وقع له. وحدث أن قيل إن ابن شريف مكة اختُطف من قبل العثمانيين والحقيقة أنه بُعث في مهمة إلى إسطنبول فمر بالقاهرة ونزل عند Fresnel، وواضح أن روش – حسب إيميريت – سمع شيئا من هذا فاستلهم قصة اختطافه هو حين كان في عرفات.

ويعود إيميريت مجددا إلى قضية الفتوى[22] التي ادعى روش أنه رحل إلى مكة من أجلها. لو كان الأمر كذلك لاستغل بيجو هذه الفتوى لضرب المقاومة الجزائرية، ولكتب عنها للوزارة ولكان الدبلوماسيون قد ذكروها في معرض حديثهم عما وقع بالجزائر أو

لكان ذِكرُها قد ورد في Tableau des Etablissements Français en Algérie. وحين اقترح بيجو اسم مترجمه لنيل وسام جوقة الشرف La Croix de la Légion d’Honneur أوضحَ أن سبب الاقتراح هو معرفة روش التامة بمجتمع الأهالي، ولم يذكر كلمة واحدة عن شيء اسمه الفتوى.

وحتى حين كُلف روش بمهمة لدى سلطان المغرب عام 1845 لم يستخدم صفة "الحاج" وكان من شأنها أن ترفع قدره. وحين تم تعيينه قنصلا في طنجة انتقدت Le National ذلك بناء على ماضيه الإسلامي فقامت L’Akhbar لتدافع عنه مذكرةً أن سبب ذهابه إلى الحج لم يكن سوى جرأة رحالةٍ هدفُهُ التعلم، ولم تأت الجريدة المدافعة عنه على ذكر الفتوى إطلاقا.

ويتساءل إيميريت كيف تم قبول روش بالجزائر مجددا بعد غيابه عنها؟ ويجيب بأن الحاجة الماسة إلى المترجمين الرسميين كانت وراء ذلك. ويعزز رأيه هذا بالحديث عن مثال آخر هو المترجم كاسن Cusson الذي فر من الجيش وادعى أنه ذهب إلى مكة مرتين، ورغم ذلك قُبل كاتبا لأحد المكاتب العربية ثم محاميا، وخدع رجالا أذكياء بما فيهم نابليون الثالث قبل أن يُحكم عليه بتهمة النصب والاحتيال.

لكن إيميريت ينبه القارئ إلى أن روش كان أذكى فصار وزيرا مفوضاMinistre Plénipotentiaire واستمر في خداع "مؤرخي شمال إفريقيا"، لذلك يرجو صاحب المقال من هؤلاء أن يكونوا أشد حذرا عند التعامل مع كتاب Trente deux ans à travers l'Islam الذي لا يمكن اعتباره شيئا آخر غير رواية شرقية جميلة[23].

استنتاج عام:

- هكذا إذًا عمل مارسال إيميريت على تشريح كتاب ليون روش Trente-deux ans à travers l'Islam الذي حمل تجربة الجاسوس والمترجم الفرنسي وهو يعيش في الشرق الإسلامي متنكرا في شخصية "الحاج عمر" الذي اعتنق الإسلام وأحب بامرأة مسلمة، وجاب أقطارا عديدة وحمل على عاتقه مهمة خدمة فرنسا الاستعمارية سواء من خلال التجسس على الأمير عبد القادر أو من خلال التعاون مع الإدارة الفرنسية وتمثيلها دبلوماسيا في المغرب وتونس ثم في اليابان حتى صار وزيرا مفوضا.

- غير أن هذه الهالة الكبيرة التي رسمها روش لنفسه لم تخدع إيميريت فراح يتتبع إنجازات الجاسوس ليفضح ادعاءاته المتعددة خصوصا ما تعلق بفتوى تحريم الجهاد بالجزائر، ويبيّن سقوطه في شراك السرقة العلمية وهو ما لا يدع مجالا للشك في أن هذه

المغامرات المزعومة ليس أغلبها سوى من نسج خيال المؤلّف "الغبي" الذي لم يبذل جهدا كبيرا وهو يستحوذ على تجربة "الآخر" سواء Burckhardt أو de Camp أو غيرهما.

– مهما كانت حجج مارسال إميريت ومبرراته فإن القارئ يلمس لديه نوعا من التحامل على ليون روش. ألم يستعن كثير من المؤرخين بهذه المذكرات؟ ألم يطلع كثير من الدارسين على حياة روش في الجزائر وخارجها؟ فلماذا لم يقفوا عند هذا الذي وقف عنده إيميريت؟ لماذا غفلوا عن ذكر سلبيات هذه المذكرات؟

الهوامش:

1) Marcel Emerit, La légende de Léon Roches. R.A. 1947, V 91, pp.81-105.

2) يوسف مناصرية، مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب (1832-1847) الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص 13

3) La Dépêche Tunisienne, N 3652, 10 Juillet 1900, p 04

4) يوسف مناصرية، مرجع سابق ص 13

5) يوسف مناصرية، نفسه، ص ص 16-25

6) ليون روش، اثنتان وثلاثون سنة في رحاب الإسلام، مذكرات ليون روش عن رحلته إلى الحجاز، نقلها إلى العربية وقدم لها وعلق عليها محمد خير محمود البقاعي، بيروت: جداول للنشر والتوزيع، ط 1، 2011، ص 18

7) Alpinus (1811-1901). Quelques pages sur Léon Roches. Grenoble, 1898, pp 2-3

8) Alger, 25 Avril 1946.

9) عادل ماجد محمد، الفهم الاستشراقي لتفسير القرآن الكريم، رسالة قدمت إلى مجلس كلية الفقه بجامعة الكوفة ضمن جزء من متطلبات الماجستير في الشريعة والعلوم الإسلامية، ص 22

10) E, Dinet et Slimane Ben Brahim Baamer, Le Pèlerinage à la maison sacrée d'Allah, Hachette, 1930

11) Marcel Emerit, La légende de Léon Roches. R.A. 1947, V 91, p 82

12) يعتمد إيميريت هنا على رواية دوما لنسف رواية روش، غير أننا لا نستبعد احتمال نسيان أحد المؤلفَين لتاريخ الرسالة بالضبط بما أن الفارق الزمني قليل.

13) Arnaud, Notice sur les Sahari, les Ouled BenAlyia, les Ouled Nail, R.A, V 08, 1864.

14) محمد بن الأمير عبد القادر، تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج 1، الإسكندرية: المطبعة التجارية، ط 1، 1903، ص 196

15) محمد بن عمر التونسي صاحب "تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان"

16) Cheykh Mohamed Ben Omar El Tounsy, Voyage au Darfour, Trad de l'Arabe par Dr Perron, Paris, 1845

17) Burckhardt, Voyage en Arabie, Trad. De l'Anglais par J.B.B, Eyriès, paris, 1835

وقد ولد هذا المؤلف بلوزان عام 1748 وتوفي بالقاهرة عام 1817م. عاش في بريطانيا وحصل على جنسيتها وبها وبسوريا تعلم العربية وتفقه في الإسلام واعتنقه وسمى نفسه إبراهيم بن عبد الله. يراجع:

ليون روش، المرجع السابق، ص 27

18) هو سفير فرنسا بجدة لكنه كان يقيم بالقاهرة

19) من بغداد وهو شيخ السيد محي الدين وولده عبد القادر، التقيا به في الحج وصارت لهما علاقة طيبة به

20) نشر روش كتابه في باريس ضمن جزأين عامي 1884 – 1885

21) يؤكد Deniet وباعمر أنه يصعب الحكم على رحلة روش من خلال الأوصاف التي يقدمها لمكة والمدينة لأنها ليست له.

E, Dinet et Slimane Ben Brahim Baamer, Op.cit, p 193

22) نقلت La Dépeche Tunisienne في عددها رقم 2143 الصادر بتاريخ 25 أفريل 1896 نص الفتوى التي زعم روش أنه عاد بها من مكة، كما ترجمها Masqueray ونشرها في

Bulletin des Correspondances Africaines, 1885

23) J'espère qu'après cette étude sommaire, mes confrères se mètreront plus prudents et ne considèreront plus *32 ans à travers l'Islam* comme autre chose qu'un roman, un joli roman oriental.

ملحق: صورة ليون روش ملتقطة عام 1865 وبيانٌ لها عليه ختمُ جمعية الجغرافيا بباريس. المرجع:

Duburguet / photographe / 0530. [Léon Roches] / [1865]. Gallica.fr



الفهرس

دار المجدد
طباعة - نشر - توزيع

02 نهج حفصي الطاهر (وراء الولاية)- سطيف/الجزائر
036.82.58.09 /0550.96.31.19 / 0550.96.31.07
على الفيس بوك: دار المجدد للنشر والتوزيع

الدكتور كمال بن صحراوي

أستاذ محاضر بجامعة تيارت، تنصبُّ اهتماماته على تاريخ الجزائر في الفترتين الحديثة والمعاصرة، وقد أنجز مجموعة من المقالات نشرها في مجلات وطنية وأجنبية. وشارك في ملتقيات وطنية ودولية، وهو عضو في مخبر الدراسات التاريخية والأثرية بشمال إفريقيا والذي تحتضن مقرَّه كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بذات الجامعة.

وللأستاذ بن صحراوي مؤلفات نشرها بالتعاون مع دور نشر جزائرية وأجنبية:

- دور يهود الجزائر الدبلوماسي أواخر العهد العثماني وبداية الفترة الاستعمارية.
- محطات في تاريخ الجزائر من خلال الأرشيف والكتابات الفرنسية.
- الحياة الريفية ببايلك الغرب الجزائري أواخر العهد العثماني.

02 نهج حفصي الطاهر "وراء الولاية" - سطيف / الجزائر
النقال: 0550.96.31.07 / 0550.96.31.19
هاتف/ فاكس: 036.82.58.09
البريد الالكتروني: dar.moudjadid@gmail.com
على الفيس بوك: دار المجدد للطباعة والنشر والتوزيع

دار المجدد للنشر والتوزيع

978-9947-38-183-0 شهر أكتوبر 2018

